نساء فى حياة الأنبياء

مأمون غريب

١٩٩٩

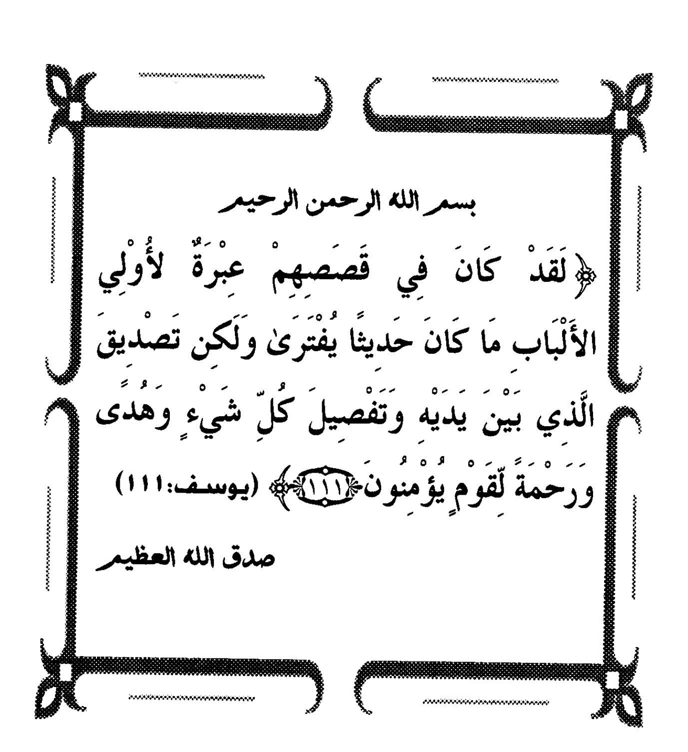
مركز الكتاب للنشر





مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون : ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر : ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت : ٢٧٢٣٣٩٨


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ (يوسف:١١١)
صدق الله العظيم

تمهيـــــد

خلق الله جل علاه الدنيا وخلق لها قوانينها التى تسير على هديها . . فالكون كله محكوم بقانون سماوى وإلا اختل توازن هذا الوجود بما فيه من كواكب ونجوم ومجرات وما فيه من أشكال مختلفة من أشكال الحياة .

وفى جزء من هذا الكون . . وفى زاوية من هذا الوجود الذى لا يمكن إدراك اتساعه . . والمسافات الهائلة التى لا يمكن تصورها ولو بالخيال . . خلق الله الإنسان ليحيا على الأرض . . وليكون خليفة الله فيها . . ولكى يمضى حياته على نسق واضح المعالم والقسمات أرسل رسله لكى يضيئوا لهذا الإنسان معالم الطريق فيعرف موضع خطاه، ويسير على النهج الذى رسمه خالق هذا الكون العظيم من خلال رسالات الله . . التى جاءت جميعا لتهدى الإنسان إلى التوحيد الخالص، وإسلام الوجه لله، والإيمان بقضاء الله وقدره، وقراءة كتاب الكون، ومحاولة فك طلاسمة ليصل الإنسان ـ بالأخذ بالأسباب - إلى التقدم والحضارة، وينطلق ليعمر هذا الكون من خلال تقدمه العلمى، واكتشافه للقوانين التى وضعها الله لهذا الوجود، والاستفادة من هذه القوانين فى حياته .

وفى هذا الكتاب الذى يضم سيَر أنبياء الله.. من خلال دور المرأة - الإيجابى والسلبى - فى حياتهم سوف نبحر لنرى تطور الإنسان من خلال الرسالات السماوية التى بدأت بآدم عليه السلام وانتهت بالرسالة الخالدة ..رسالة الإسلام الذى بلغها عن ربه محمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

وفى هذه الصفحات التى نطالعها، قد أضفت كثيراً من المعلومات عن الطبعات السابقة.. فقد حرصت أن تكون هذه الدراسة عميقة وموسعة وبعيدة عن الأساطير التى امتلأت بها الكتب التى تناولت حياة الرسل والأنبياء.. وذلك بالرجوع إلى أوثق المراجع واعمال العقل والمنطق فيما يحتاج إلى الجهد العقلى، ليخرج هذا العمل مفيدا لكل من يريد أن يعرف.. و..ما أعظم هذه المعرفة التى تتعلق بصلة الإنسان بالخالق الأعظم سبحانه وتعالى.. هذه الصلة التى تتمثل فيما جاد من شرائع الله عن الحلال والحرام ..

فالحلال يقربك من الله سبحانه ..

والحرام يبعدك عنه سبحانه ..

وفى سلوك الحلال.. سلوك إلى السعادة و عروج إلى منابع النور الأسنى.. وراحة للنفس..واستقرار لها.

آدم عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

(طه:١٢١ ، ١٢٢)

صدق الله العظيم

آدم هو أبو البشرية.. خلقه الله سبحانه وتعالى من طين ونفخ فيه من روحه فإذا هو بشراً سوياً.. إنسان عاقل مدرك أكرمه الله بأن علمه الأسماء كلها، وأمر الملائكة أن يسجدوا له، فهو الذى حمل الأمانة، وأصبح خليفة الله فى الأرض، وخلق الله من ضلعه حواء ليكونا نواة تدفق البشرية على الأرض وتعميرها فيما بعد. فمن نسل آدم كان ملايين البشر الذين تشاهدهم فى قارات الدنيا كلها.. فيهم الخير والشر، فيهم الحق والباطل، يسودهم السلام، وتؤرق حياتهم الحروب وسفك الدماء.. هذه الملايين التى نراها الآن فى أوج تقدمها العلمى والحضارى، هم سلالة آدم عليه السلام، وزوجته حواء.

أما الهدف من خلق آدم وحواء..هو عبادة الله الخالق الأعظم وواهب الوجود، وأن يكون من ذريتهما كل الأمم والشعوب ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ **[الحجرات : ١٣]**.

لقد خلق الله آدم... وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين، فحل عليه غضب الله لأنه لم يذعن للإرادة الإلهية، فيسجد لآدم كما سجد الملائكة، ولم يكن

إبليس من الملائكة، ولكنه كان من الجن، وقد طلب من الله عز وجل أن يمهله إلى يوم الدين، وأمهله الله حتى يكون وسيلة لإغواء ضعاف الإيمان، أما أصحاب الإيمان القوى فلا سلطان له عليهم.

لقد خلق الله حواء من ضلع آدم لتكون له سلوى فى حياته ومشاركة له فى رحلة الوجود.. وكان لابد لهما أن ينزلا من الجنة إلى الأرض، حتى تعمر الأرض بالبشر والناس وتبدأ مسيرة الإنسانية ما شاء لها الله أن تستمر فى الحياة إلى أن تنتهى الحياة، لتبدأ دورة الخلود فى العالم الآخر.

عاش آدم وحواء فى الجنة.. إلى أن وسوس لهما الشيطان بأن يأكلا من الشجرة المحرمة، موهما إياهما بأن من يأكل من هذه الشجرة فسوف يخلد، فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة..

ان الإنسان مكتوب عليه أزلا أن يعيش فى الدنيا، ويموت ويدفن تحت ثراها إلى يوم البعث والنشور..

ولم تكن الملائكة تعرف عن هذا الإنسان إلا ما أخبرهم به الله عز وجل..عندما أخبرهم أنه سيخلق الإنسان وأنه يعلم ما لا يعلمون. وعندما استكثر الملائكة على الإنسان أن تكون له هذه المكانة، رغم أنهم يعبدون الله ولا يعصونه، ثم عرفوا كيف علم الله آدم الأسماء كلها، فإذا هم يقرون بحكمة الله فيما يخلق وأن الله أكرم الإنسان عندما علم آدم الأسماء كلها، ولم تأكل الغيرة إلا إبليس:

﴿إذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص : ٧١] .

هبط آدم إلى الأرض لتبدأ مسيرة الحياة. . وما أكثر ما قيل عن آدم وزوجته حواء عندما هبطا إلى الأرض. .هناك روايات كثيرة عن هذا الهبوط، وفى أى مكان كان هذا الهبوط؟

مهما اختلفت الروايات فالذى لا شك فيه أن آدم عليه السلام عندما وجد نفسه وحيدا وسط تيه هذا الوجود، لابد أنه قد استشعر الخوف والرهبة والقلق. .فالوجود صامت . . وهو فى هذا التيه يبحث عن رفيقة عمره لتؤنس وحشته وسط هذا الصمت الذى يحيط به من كل جانب، ولابد أنه توجه إلى الله بكل كيانة لكى يغفر له ذلته، وأن يعثر على رفيقة عمره، وأن يعنه على هذه الحياة الجديدة، التى يتناوب عليها النهار والليل، النور والظُّلمة، الحرارة والبرودة، وأن يعيش مع زوجته فى هذه الحياة التى تظلهما فيها هذه السماء الصافية حينا، المتكاثرة السحب حينا آخر. . وأن تملأ عليه حياته، ويعبدا الله وحده. . فهو وحده الكفيل برعايتهم، وهو الذى يهديهم طريق الهدى والرشاد.

وتقبل الله توبته. . ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [٣٧ : البقرة]

وشعر آدم براحة البال بعد أن أيقن رضاء الله عنه وكان منتهى أمله أن يعثر على حواء. . فما أكثر ما كان ينادى على شريكة العمر

وسط هذا الفضاء الموحش، عسى أن ينتقل صدى صوته عبر هذا الفضاء العريض الفسيح إلى سمعها، فيجمعهما الله مرة ثانية. .

وذات أمسية وعتها ذاكرة الزمان، رأى شبحها يتقدم نحوه. . وكان اللقاء الخالد على جبل عرفات. . وكانت بداية حياة جديدة على الأرض. . فقد بنيا بيتا يأويان إليه، وكان لابد أن يكون هناك بيتا لعبادة الله الواحد الأحد القهار. . وكان بيت الله الحرام. . أول بيت وضع للناس لعبادة الخالق الأعظم. .

ولابد أن آدم فكر مع زوجته أن يحولا الأرض إلى صورة من تلك الجنة التى كانوا فيها، فقد كانت مليئة بالزروع والأشجار والأزهار. . فكان ذلك بداية عمار الأرض.

وبدأت الحياة. . حياة استقرت فى أعماق كل منهما أن الحياة روح ومادة. . روح تلقى بهم إلى النور حيث النفحة الربانية. . وأن عليهم أن يزكوا هذا السمو الروحى بالعبادة والاتجاه إلى الخير. وألا ينخفضا إلى حضيض المادة. . إلى التراب الذى خُلقا منه بالابتعاد عن الشر. . فقيم الخير والحب والجمال والفضائل فطرة فى أعماق الإنسان. . والشر أيضا فطرة فى الإنسان. وعليهما أن ينتصرا على عوامل الشر، بعمل الخير. . وأنجبت حواء عشرين مرة. . وفى كل مرة تحمل توأمين. . ذكرا وأنثى.

وكان أول ولد لهما هو قابيل وتوأمته «إقليما».

لابد أن آدم وحواء قد سعدا سعادة غامرة عندما أنجبا هذين الطفلين اللذين سيملآن حياتهما بالبشر والسعادة والهناء، ويملآن فراغ حياتهما . .

وحملت حواء مرة أخرى . . وكان «هابيل» وتوأمته «لبودا» . ولكن الحياة هى الحياة . . مزيج من السعادة والشقاء . . الخير والشر .

لم يكن يدور بخلد آدم وحواء أن الحياة صراع . . وأنهما سوف يشهدان صراع أبنائهما . . وقد كان هذا الصراع الأول من أجل المرأة . فقد كان من المفروض أن يتزوج كل توأم بتوأمة الآخر وألا يتزوج توأمته هو . ومن هنا أمر آدم هابيل أن يتزوج من إقليما ومن هنا بدأ الصراع . . رفض قابيل أن يتزوج من لبودا، وأصر أن يتزوج من توأمته «أقليما» لأنها أكثر جمالا وقد هام بها حبا، ولم يطع أبيه، ولم يجد آدم وسيلة لحل هذا الإشكال بين الأخوين، إلا أن يأمر ولديه بأن يقدم كل واحد منهما قربانا إلى الله، والذى يتقبل الله منه هو الذى يتزوج إقليما . . وقبل قربان «هابيل» عندما قدم كبشا فرفع إلى السماء وبقى على الأرض قربان قابيل . .

وهذا الموقف يصوره القرآن الكريم بأسلوبه المعجز بقوله :

﴿اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ

اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣١].

لقد لخصت هذه الآيات الكريمة قصة هذا الصراع بين قابيل وهابيل، والتى انتهت بأن قتل الأخ أخاه حتى يفوز بمن شغلت قلبه وهام بها حبا. . وهكذا كان الحب الدافع لأن يقتل قابيل أخاه هابيل.

ويروى ابن كثير فى كتابه «قصص الأنبياء» ما ذكره أبو جعفر الباقر «أن آدم كان مباشرا لتقريبهما القربان، والتقبل من هابيل دون قابيل».

فقال قابيل لآدم

- إنما تقبل منك لأنك دعوت له ولم تدع لى، وتوعد أخاه فيما بينه وبين نفسه.

فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل فى الرعى، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به.

فلما ذهب إذا هو به فقال له:

- تقبل منك ولم يتقبل منى.

فقال:

ـ إنما يتقبل الله من المتقين.

فغضب قابيل عنده وضربه بحديدة كانت معه فقتله.

وقيل: إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته.

وقيل بل خنقه خنقا شديدا وعضه كما تفعل السباع فمات.. والله أعلم».

ويقول ابن كثير:

وقوله لما توعده بالقتل: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة : ٢٨]

دل على خلق حسن، وخوف من الله تعالى وخشية منه، وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذى أراد منه أخوه مثله.

ولهذا ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار».

قالوا: يارسول الله.. هذا القاتل فما بال المقتول؟

قال: لأنه كان حريصا على قتل صاحبه».

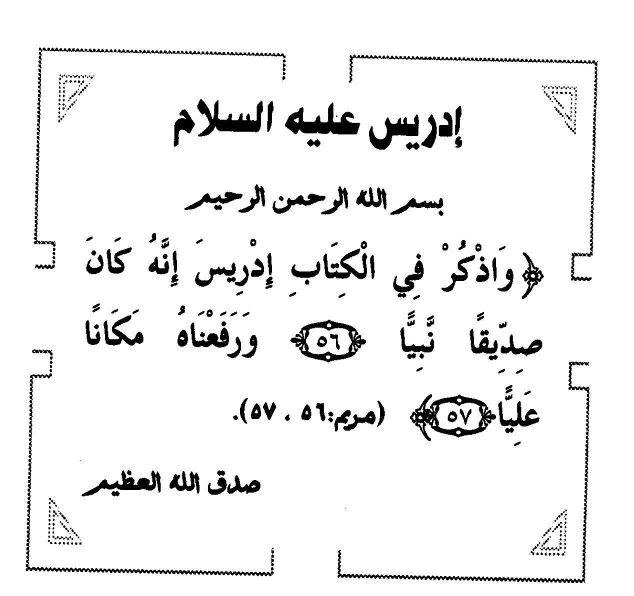
مهما كانت وسيلة القتل. فقد حدثت الجريمة.. والسبب هو المرأة.. لقد دفع هابيل حياته بسبب نقمة أخيه عليه، لأنه سيتزوج من يهواها قلبه. وكانت أول جريمة فى التاريخ.

بعدها لم يستطع قابيل أن يواجه نظرات أبيه، وتأنيبه له، فأخذ زوجته متجها صوب الجنوب . . إلى المكان الذى أصبح اليمن الآن . . حيث أنجب من زوجته إقليما ذرية كثيرة .

وعاش آدم حزينا لقتل ابنه هابيل . . إلى أن رزقه الله بابنه شيث «وشيث يعنى هبة الله» .

وقيل أن آدم عاش ألف عام . وأنه مات قبل حواء بعام واحد . . ولم يُعرف المكان الذى دفنا فيه . . و . . بدأت ملحمة البشرية .

* * *



إدريس عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ (مريم:٥٦ . ٥٧).

صدق الله العظيم

إدريس هو أحد أنبياء الله الذين رفعهم الله - جل جلاله - مكانا عليا. . وهو من سلالة شيث بن آدم عليه السلام.

وقد اختلف الرواة فى مكان مولده. البعض قال إنه ولد وعاش فى مصر. . فهو قد ولد فى طيبة. . وكان اسمه هرمس الهرامسة. . أى حكيم الحكماء. . وأنه أول من خط بالقلم وأول من علّم الناس القراءة والكتابة، وأنه كان على علم بالفلك. . كما علم الناس الزراعة:

وقالوا: أنه كان يحفظ وصايا جده شيث الذى أخذها عن أبيه آدم.

وقال البعض: أنه ولد فى بابل، ومنها اتجه إلى مصر.

وقال البعض الآخر: أنه نشأ فى شبه الجزيرة العربية. .

مهما يكن من شىء فلا خلاف أنه كان صديقا نبيا لقوله تعالى فى سورة مريم:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦ - ٥٧].

وقال عنه فى سورة الأنبياء:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥، ٨٦].

وما دام كان نبيا كما يشير القرآن الكريم، فكانت دعوته هى التوحيد، وعبادة الله الواحد الأحد، وعدم الشرك.. وإتيان الفضائل والتمسك بمكارم الأخلاق والبعد عن الرذائل.. فكل دعوات الرسل تدور حول هذا المحور.. الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الأخر.

وتقول الروايات التى تحدثت عنه أنه «إدريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم».. فهذا يعنى أنه وجد منذ زمن موغل فى القدم.

فإن كان قد ولد فى مصر.. فهذا يعنى أنه كان قبل عصر الأسرات.. ومن هنا فقد ربط البعض بينه وبين أسطورة إيزيس وأوزوريس وحورس.. وعلى أساس أن الأسطورة تقول أن أوزوريس هو أول من علم الناس القراءة والكتابة وعلم الفلك والزراعة، وأنه رفع إلى السماء.. وكل هذه الأوصاف اتصف بها إدريس عليه السلام..!

مهما كانت الروايات.. عن إدريس وأصله.. ومكان ولادته. ومهما حاولت مختلف دول العالم القديم أن تنسبه إليها.. لأن

المصريين أطلقوا عليه «حورس» أو «هورروس»، وأطلق عليه اليونانيون «هارماكيس» والعبرانيون أطلقوا عليه «خنوع». . والعرب قالوا إنه «أخنوخ». . وأطلق عليه القرآن الكريم اسم: إدريس. . فكل هذا ـ إن دل على شيء ـ فإنما يدل على أن إدريس عليه السلام كان له دور كبير فى الحضارة الإنسانية، وأنه ترك بصمات فى حياة الناس. . بصمات دينية ودنيوية. . وإنه بعد أن أدى رسالته رفعه الله مكانا عليا كما يقول القرآن الكريم.

ومن الأقوال التى تنسب إليه:

* أول ما يجب على المرء الفاضل بطباعه المرضى فى عاداته. . المرجو فى عاقبته تعظيم الله عز وجل. . وشكره على معرفته. وبعد ذلك فللناموس عليه حق الطاعة له والاعتراف بمنزلته، وللسلطان عليه حق المناصحة والانقياد،ولنفسه عليه حق الدأب فى فتح باب السعادة، ولخلصائه عليه حق التجلى لهم بالود والتسارع إليهم بالبذل فإذا أحكم هذه الأسس لم يبق عليه إلا كف الأذى عن العامة وحسن المعاشرة بسهولة الخلق.

ومن الأقوال التى تنسب إليه أيضا:

* حياة النفس فى الحكمة وموتها فى الجهل.

* حب الدنيا وحب الآخرة لا يجتمعان فى قلب أبدا.

* لا تحسدوا الناس على مؤاتاة الحظ، فإن استمتعاهم بقليل.

وقيل أنه عاش على الأرض اثنتين وثمانين سنة. . والذين كتبوا عن إدريس عليه السلام توصلوا إلى أن الآثار العلمية والروحية التى تركها فى دنيا الناس لا تحصى. . وأن الكهان قد أخذوا ما توارثوه عنه وجعلوه سرا من الأسرار لا يعرفه إلا الكهنة والخاصة. . وأنه بمرور الزمن تناسى الناس ما جاء به نبى الله إدريس عليه السلام من دعوة التوحيد الخالصة. . فاتجهوا إلى الكواكب والنجوم الذى حدث الناس عنها، وانحرفوا عن دعوته فعبدوها، ثم ما لبثوا أن عبد بعضهم الأصنام على اعتقاد أنها تقربهم إلى الله، ثم تناسوا مع مرور الزمن رحيق السماء. . فعبدوا الكواكب والنجوم والأصنام، وابتعدوا عن دعوة التوحيد التى نادى بها إدريس عليه السلام.

ومن هنا فقد طبق الظلام على البشرية. . وساد الجهل. . وكان لابد للسماء أن تعيد الناس للفطرة السليمة. . والفطرة السليمة لا تستقيم إلا مع الإيمان. . ومن هنا توالت رسالات الله فى كل العصور. . من آدم إلى النبى الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام. .

ولا أحد يعرف عدد الرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى إلى الناس، لأن القرآن لم يذكرهم كلهم ولا نعرف عنهم إلا ما ذكرهم فى الكتاب الكريم وهم خمسة وعشرون رسولا ونبيا.

قال تعالى:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٦].

والدراسات التى تحدثت عن إدريس عليه السلام، وبعيدا عن الأساطير التى حيكت حول سيرته.. لم تتعرض للمرأة فى حياة هذا النبى الكريم الذى رفعه الله مكانا عليا.. فقد ركزت عن أثاره ودعوته للإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر.. وأنه علم الناس من أمور دنياهم الكثير..

وقد وصفه الرواة بأنه كان طويل القامة، حسن الوجه، كث اللحية، نحيفا.. كثير التأمل.. قليل الكلام.. ولا يتجه ببصره إلى السماء إلا عند الدعاء.

* * *

نـوح عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ
نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ
مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا
عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ
الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (التحريم:١٠)

صدق الله العظيم

مضت سنوات وسنوات على وفاة آدم عليه السلام.. نسى الناس خلالها رحيق السماء، ودعوة آدم بالتوحيد، فعبد الناس الأصنام، واتخذوها آلهة من دون الله، وأطلقوا عليها هذه الأسماء: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرا.. وكانت هذه أسماء لأناس صالحين من نسل آدم عليه السلام، وكان صلاحهم حديث الناس الذى تناقله جيل عن جيل، إلا أنه مع مرور الزمان، أقام لهم الناس تماثيل، وسرعان ما تحولت هذه التماثيل إلى آلهة تعبد من دون الله فقد نسى الناس أن هذه التماثيل ترمز إلى هؤلاء الناس الصالحين من ذرية آدم.. نسوا الأصل، وتذكروا هذه الأصنام واحترام الناس لها، ثم سرعان ما عبدوها عندما سول لهم الشيطان ذلك.

وجاء نوح عليه السلام، فوجد قومه يعبدون هذه الأصنام، وأوحى الله إليه أن ينبذوا هذه العبادات التى لا معنى لها، ويعودون إلى عبادة الله الواحد الأحد.. ولكنهم أصموا آذانهم وتذرعوا بأنهم وجدوا آباءهم يعبدون هذه الأصنام، وأنهم لا يخالفون ما وجدوا عليه الآباء والأجداد.

كان نوح عليه السلام، قوى الحجة، فصيح اللسان، حاول إقناعهم بكل الوسائل ليكون إيمانهم بالله وحده دون سواه، واقتنع

بعض الفقراء والضعفاء بهذه الدعوة وآمنوا بها، ورأى الأغنياء والأقوياء ذلك، فأخذتهم العزة بالأثم، وحاولوا إقناع نوح بأن يبعد هؤلاء الضعفاء والفقراء من حوله ولكنه كان يقنعهم بأن الناس سواسية فى الإيمان بالله، وأن المؤمن الفقير أفضل عند الله من الغنى الجاهل، وضاقوا ذرعا بمنطقه وقالوا:

﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

ومرة أخرى يحدثهم نوح عليه السلام بأن يذعنوا لنداء الإيمان.. وأنه مجرد بشر، لا يملك لهم شيئا.. لا ضرا ولا نفعا إلا بأمر الله.. إنه بشر يوحى إليه من قبل الله.

كانت الدعوة رغم قوة حجة نوح عليه السلام تسير بين الناس ببطء فلم يؤمن معه إلا قليل من الناس، رغم أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما.. وأوحى إليه الله تعالى:

﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

وعندما أيقن نوح عليه السلام أنه يدعو أناسا قد وضعوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا دعوة الحق، وأغمضوا أعينهم عن النور الذى يدعوهم إليه، اتجه إلى الله بكل كيانه.

﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

وأوحى إليه سبحانه وتعالى أن يصنع سفينة، تمهيدا لتحمل المؤمنين عندما يأتى أمر الله بإغراق الذين أعرضوا عن الإيمان، وساروا وراء أهوائهم.

ولكن قوم نوح كانوا يسخرون من نبى الله، وهم يرونه يصنع هذه السفينة، وتزداد سخريتهم منه وهم يحدثوه عن هذه السفينة التى يصنعها فى مكان ليس فيه بحار ولا أنهار، وكان يرد عليهم:

﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨، ٣٩].

أين كانت امرأة نوح من هذه الدعوة التى كان ينادى بها زوجها نوح عليه السلام؟

لا أحد يعرف اسمها لأن القرآن الكريم لم يذكر اسمها . . وكذلك التوراة لم تذكر اسمها . . لقد ذكرت فى التوراة والقرآن بـ«امرأة نوح» وكانت امرأة نوح تؤمن بما آمن به قومها . . من تقديس الأصنام، ولم تأبه بدعوة زوجها، ووقفت موقف الرفض من الدعوة.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

ولم يُنكب نوح في زوجته التي أعرضت عن نداء الإيمان فقط بل جرف الكفر ابنه «كنعان» كما جرف أمه!

وجاء وعد الله.. وحمل نوح على سفينته من آمن به، كما حمل من الحيوانات والطيور، والوحوش، من كل زوجين اثنين.. وجاء الأمر الإلهي:

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

وتهيأت السفينة أن تطفوا على سطح الماء، عندما تساقطت الأمطار الشديدة الغزارة من السماء، وتفجرت المياه من الأرض، وارتفعت المياه عن سطح الأرض، ثم أصبحت هذه المياه تندفع بسرعة مذهلة وهي تغطي وجه الأرض وترتفع أمواجها كالجبال.. وبين هذه الرعود والأمطار.. ومن خلال هذا المشهد الرهيب جرفت المياه فيما جرفت من الكفار زوجته التي لم تؤمن بما جاء به من وحي الله.. أثناء هذا المشهد الرهيب شاهد نبي الله ابنه كنعان يغالب الأمواج، ويحاول أن يصل إلى جبل يحتمي به من هول هذه الأمواج العاتية..

وخفق قلب نوح كأب لابنه، لقد تمنى أن يؤمن ابنه وينجو ويصعد إلى السفينة معه، ولكن الابن قد أعماه كفره..

سمع نداء أبيه له حين قال:

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٣].

وأجاب الابن:

﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣].

إن الكفر قد أعمى بصره وبصيرته.. فرغم مشاهدته هذه المعجزة.. وأن السماء تسقط هذه الأمطار بكل هذه الغزارة، والأرض تندفع من أعماقها المياه، والمياه تغمر الأرض، وترتفع باندفاع مروع فى كل الجهات، إلا أن الابن ظل على كفره وعناده.

نادى نوح ابنه مرة ثانية:

﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

وشاهد نوح مشهدا عجيبا.. وسط الرعود وهطول الأمطار.. حال الموج بينه وبين ابنه، واتجه إلى ربه لعله يكتب له النجاة، فقد وعد الله نوحا بأن ينجيه وأهله، وأهله هم الذين آمنوا بدعوة التوحيد.. ولكن ابنه بكفره لم يعد من أهله.. وهكذا كتب على ابنه كنعان الغرق، كما غرقت امرأته..

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٦].

وأيقن نوح عليه السلام بقدر الله، واتجه إلى الله بكل كيانه:

﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود : ٤٧].

وغرق الذين كفروا.. وتحقق انتقام السماء، وكان لابد لهذه المياه الهائلة أن تنحسر، وتعود الحياة إلى سيرتها الأولى، كما كانت عليه قبل هذا الطوفان، وجاء الأمر الإلهى.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

هبط نوح عليه السلام إلى الأرض.. وهبطت الحيوانات والطيور والوحوش التى كانت معه فى السفينة. لتبدأ الحياة من جديد.

حياة يعبد فيها الناس خالقهم العظيم، بعد أن خلت الدنيا بعد الطوفان من الأوثان التى غرقت مع الكافرين، وانطلقت الطيور فى سماء الله العريضة، وكأنها وهى ترفرف بأجنحتها فى الفضاء الفسيح، تسبح الله وتشكره على الإيمان الذى يشع فى الوجود. وأخذت الأرض تجف مع مرور الوقت.. وأخذ الناس يزرعون الأرض وينتظرون الحصاد.

لقد لبث نوح عليه السلام على الأرض ألف سنة إلا خمسين عاما. !

ومن الطريف أن عمر نوح عليه السلام كان موضع جدل، وتساءل الناس.. هل يمكن أن يعيش الإنسان على الأرض هذا الزمن الطويل؟! ، أم أن السنة لم تكن تطلق على السنة التى نعرفها الآن، بأيامها المحددة المعروفة!.

هل عاش ٩٥٠ عاما أم ٩٥٠ شهراً؟! ، على أساس أن كل هلال يظهر مع أول كل شهر كان يعتبر سنة، أم أنه عاش ٩٥٠ عاما بالفعل؟

لا شك أنه عاش ألف سنة إلا خمسين عاما كما يقول القرآن الكريم، لأن القرآن نزل بلغة العرب، وحدث الناس بلغتهم العربية، ومفاهيمها، ومفهوم السنة عند العرب هو السنة، وليس الشهر.

أما التعجب حول هذه السن الطويلة التى عاشها نبى الله نوح عليه السلام، ربما يرجع إلى التعجب الذى اعترى الشاعر الفيلسوف أبا العلاء المعرى عندما قال فى ذلك:

وروَوا للمعمــــرين أمـــورا
لست أدرى ما هن فى المشهور
أتراهم فيمـا نقضى من الأيـام
عــددا ســـنينهم بالشـــهور

كلما لاح للعيـــون هـــــلال

كان عاما لديهموا فى الدهـور

هكذا كان ينبغى وإلا فإن العقل

يثنى فى حــــــالة المبهـــور!!

والغريب أن قصة الطوفان هذه قد تناولتها أساطير العالم القديم كله، فى أمريكا الجنوبية، وفى بابل، وفى مصر القديمة، وعند الأغريق. وكل هذه الأساطير تتحدث عن طوفان هائل غمر الكون، وقضى على العمران، ولم ينج منه إلا من ركب السفينة.

حتى أننا نرى «ماكس موللر» يترجم قصة عن السنسكريتية ملخصها أن متعبدا ذهب إلى النهر للاستحمام، فخرجت له سمكة تطلب منه أن ينقذها حتى تنقذه!

أخبرته هذه السمكة أن طوفانا هائلا سوف يغمر العالم، ويغرق المخلوقات، وهذا يعنى أن القيامة سوف تقوم، ونصحته أن يبنى سفينة، حتى لا يغرق وستكون هى دليله للنجاة!

وعند الإغريق أسطورة تقول أنه حدث طوفاناً بلغ السماء، وأن هذا الطوفان كان فى عهد أوجيج ملك أتيكا الأول، واستطاع الملك أن يتخذ لنفسه ولحاشيته سفينة تمكن عن طريقها من النجاة!

وهذه الأساطير التى تحدثت عن الطوفان الذى أغرق الكائنات ولم ينج منه إلا من ركب السفينة، إن دلت على شىء، فإنما تدل

على أن التراث الإنسانى تناقل ما حدث فى عهد نوح عليه السلام، وسجل ذلك ذاكرة التراث الشعبى، بعد أن حرف هذا التراث من ناحية التناول بفعل مرور السنين . .

وكل هذه الأساطير تشير إلى الحقيقة التى حدثت، وسجلها القرآن الكريم، بأسلوبه المعجز، لتبقى العبرة والعظة، بأن الحق لابد أن ينتصر مهما كانت أشواك الطريق، ودعوات السماء لابد أن تشق طريقها إلى القلوب والعقول، مهما وقف ضدها المتعجرفون والطغاة.

وقد انتصرت دعوة نوح، وعاش أتباعه بعد الطوفان يملأهم اليقين بمبدع السماوات والأرض، وكل الوجود.

لقد انتشر الناس بعد الطوفان بحثا عن الرزق، وعمارة الأرض. . فاتجهوا إلى الأماكن التى يمكن زراعتها عند الأنهار. . كالنيل، ودجلة والفرات، والسند، وغيرها من الأراضى التى يمكن زراعتها، والعيش على ضفافها.

وامتلأت الحياة بالناس الذين يعمرون الحياة، وشقت البشرية طريقها نحو العمل والانتاج، وعبادة الخالق الأعظم.

ومع مرور السنين، والانشغال بالدنيا عمن سواها، نسوا من جديد ما كان ينادى به نبى الله نوح عليه السلام. . وغشيت الحياة ظلمات الجهل والخرافة. . فابتعدوا عن منهج الله، واتخذوا من دون

الله أربابا . . وأضلهم الشيطان وأخذهم إلى عالم الغواية والضلال والبهتان، واختفت شمس الحقيقة ليتخبط الناس فى دياجير الكفر والغباء . . وكان لابد أن يبعث الله إليهم رسولا منهم، حتى يعيد الناس إلى منهج الله . . وإلى طريق الله الصحيح . . وكانت دعوة هود عليه السلام.

* * *

هـود عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ
لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(الشعراء: ١٢٣ ـ ١٢٥)

صدق الله العظيم

بعد الطوفان. . وبعد أن رست سفينة نوح عليه السلام على الجودى. . وبعد أن جفت المياه وسطعت الشمس، وبدأت النباتات والزهور تملأ الأرض. . عاد الناس يباشرون حياتهم فى أرض الله الواسعة. . وعادوا إلى العمل والانتاج وإثراء الحياة على الأرض.

وكالعادة ومع مرور الزمن نسى الناس رحيق الروح، وما جادته من رسالات الله التى تدعوهم إلى عبادة الله الواحد، وعمل الخير، وتجنب الشر. . فإذا بهم يلوذون بغير الله. . ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع.

كان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد: سام وحام ويافث. . ومن هؤلاء الثلاثة الذين انتشروا فى الأرض. . عمرت بذريتهم بلاد مختلفة. .

وهناك حديث يروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول:

ـ «وَلَدُ نوح ثلاثة: سام. . وحام. . ويافث.

فسام أبو العرب وفارس والروم.

وحام أبو السود.

ويافث أبو الترك».

وهذا الحديث يعنى أن العرب والفرس والروم ينسبون إلى سام.. وأن الأجناس السوداء التى تسكن القارة الأفريقية وغيرها من القارات ترجع إلى حام.. أما أبناء الشمال الذين يقصدهم الرسول ويسميهم الترك فهم ينسبون إلى يافث.

وفى شمال حضرموت فى جنوب الجزيرة العربية.. أو فى أرض الأحقاف كانت تقطن قبيلة عاد.. وقد انحرفت هذه القبيلة عن الطريق المستقيم بعد أن غرتهم قوتهم وأموالهم، وما أقاموه من حضارة شامخة.. فقد سكنوا القصور، وامتلأت أرضهم بالحدائق الغناء، وتخللتها العيون، وجداول الأنهار.

وكانت إرم أشهر مدن عاد.. وأسموها بهذا الاسم نسبة إلى جدهم إرم بن سام بن نوح.

ورغم ما حباهم الله من نعمة الثراء، إلا أنهم كانوا يعبدون الأصنام.. ونسوا دعوة نوح عليه السلام.

فإذا كان قوم نوح عبدوا «وداً وسواعا، ويغوث، ويعوق، ونسرا» وحاق بهم ما حاق من العذاب.. وأغرقهم الله بالطوفان فقوم هود عبدوا صنما أطلقوا عليه «صمود» وآخر أطلقوا عليه «الهتّار».

وجاءهم نبى الله هود.. من قبيلة يقال لها الخلود.. وصفه الرواة.. بأنه كان وسيما.. أبيض اللون.. كث اللحية.. فدعاهم

إلى نبذ عبادة الأصنام، والعودة إلى عبادة الله الواحد الأحد.. ولكن كلماته لم تجد آذانا صاغية، ولا عقولا تفكر فيما يقوله لهم نبيهم.. وكلما دعاهم إلى ترك ما هم فيه من غواية الشيطان، زادوا إصرارا على التمسك بما درجوا عليه من عبادة أصنام صماء بكماء عمياء.. ولم يقتنعوا بكلام هود عليه السلام.

﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

كانوا يتباهون بقوة أجسادهم، وتمكنهم فى الأرض.

﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وتناسوا فى غمرة لهوهم وعبثهم، وبعدهم عن الطريق المستقيم، حقيقة أن الذى وهبهم كل ما يتمتعون به من ترف أقوى منهم، وأنه قادر على الذهاب بهم، ليأتى بآخرين يعمرون الأرض ويعبدون الله.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

كان ردهم دائما كلما حاول أن يثنيهم عما هم فيه من خلال قولهم له:

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

ويعاود النبى الكريم دعوتهم بالحسنى، ويحاول إقناعهم بأنه ليس سفيها وأنه لا يأخذ أجرا على دعوته تلك، وما يريد إلا الإصلاح.. ولكن قومه أصروا على عنادهم..

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧، ٦٨].

وطال الحوار.. وطال لجاجهم وبعدهم عن الحقيقة.. وأنذرهم نبى الله بأن الدمار سيعمهم جميعا، ولن تنفعهم بعد ذلك أموالهم وقصورهم وأجسادهم القوية.. وطلب منهم أن يستغفروا ربهم، ويقلعوا عن معاصيهم، وإلا فكل شىء فى حياتهم سينتهى ويعم البلاء والهلاك.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وضاق بهم وضاقوا به وتحدوه أن يأتى بالعذاب الذى يعدهم به:

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعرف: ٧٠].

وبدأت النذر.. أمسكت السماء عن المطر.. وبدأت بساتينهم ومزارعهم تعانى من الجفاف، واقترب وعد الله.. وبدلا من أن يعودوا إلى عقولهم، ويفكروا فيما يقوله لهم نبيهم.. تمادوا فى عنادهم وكفرهم.. وقد وصف الله سبحانه وتعالى ما حدث منهم ولهم فى سور مختلفة كما فى سورة الأعراف، وهود، والمؤمنين، والشعراء، وفصلت، والأحقاف، والذاريات، والقمر، والحاقة، والفجر..

يقول تعالى فى سورة القمر:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر: ١٨ - ٢٠].

ويقول فى سورة الحاقة:

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ۝٨ ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨].

ويفسر لنا الدكتور «محمد سيد طنطاوى» ما جاء فى سورة الحاقة بقوله فى (التفسير الوسيط للقرآن الكريم):

«أى أرسل الله تعالى على هؤلاء المجرمين الريح التى لا يمكنها التخلف عن أمرة فبقيت تستأصل شأفتهم، وتخمد أنفاسهم (سبع ليال وثمانية أيام حسوما).. أى متتابعة ومتوالية حتى قطعت دابرهم ودمرتهم تدميرا.

وقوله (حسوما) يصح أن يكون نعتا لسبع ليال وثمانية أيام، ويصح أن يكون منصوبا على المصدرية بفعل من لفظه، أى تحسبهم حسوما.

ثم صور سبحانه هيئاتهم بعد أن هلكوا فقال:

(فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية).

والخطاب فى قوله (فترى . .) لغير معين. والفاء للتفريع على ما تقدم، والضمير فى قوله (فيها) يعود إلى الأيام والليالى، أو إلى مساكنهم. وقوله (صرعى) أى هلكى، جمع صريع كقتيل وقتلى، وجريح وجرحى. والأعجاز جمع عَجُز. والمراد بها هنا جذوع النخل التى قطعت رءوسها. و(خاوية) أى ساقطة، مأخوذ من خوى النجم، إذا سقط للغروب أو من خوى المكان إذا خلى من أهله وسكانه، وصار قاعا صفصفا بعد أن كان ممتلئا بعمّاره.

أى أرسل الله تعالى على هؤلاء الظالمين الريح المتتابعة لمدة سبع ليال وثمانية أيام فدمرتهم تدميرا. وصار الرائى ينظر إليهم فيراهم وقد ألقوا على الأرض هلكى، كأنهم فى ضخامة أجسادهم جذوع نخل ساقطة على الأرض، وقد انفصلت رءوسها عنها.

وعبر سبحانه بقوله: (فترى القوم. .) لاستحضار صورتهم فى الأذهان، حتى يزداد المخاطب اعتبارا بأحوالهم، وبما حلّ بهم.

والتشبيه فى قوله: (كأنهم أعجاز نخل خاوية). . المقصود منه تشنيع صورتهم، والتنفير من مصيرهم السيىء، لأن من كان هذا مصيره، كان جديرا بأن يتحامى، وأن يتجنب أفعاله التى أدت به إلى هذه العاقبة المهينة.

والاستفهام فى قوله: (فهل ترى لهم من باقية). . للنفى، والخطاب - أيضا - لكل من يصلح له، وقوله (باقية) صفة لموصوف محذوف. . أى فهل ترى لهم من فرقة أو نفس باقية».

لقد دمرت عاد. . وخرج نبى الله هود مع من اتبعه من المؤمنين بعيدا عن هذه البلاد التى تباهت بحضارتها. . فأبادها الله. . وأيقن المؤمنون بنصر الله وفتحه. . وعاد النور لينشر ضياءه على الأرض. . وعاد المؤمنون يعبدون الله الواحد. .

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: ٥٨].

وقصة هود لم تذكر فى التوراة. . وقد ذكرها القرآن الكريم لتكون عبرة وعظة لمن ينكرون الخالق لكى يتدبروا أن عاقبة الإنكار والظلم، الإبادة والعذاب، لأن الله قادر على أن يخلق آخرين يؤمنون به ويتقونه ويعمرون الحياة من خلال قيم رسالات الله التى أرسل بها رسله. لتكون نور وهداية للناس، فيعبدون الله على بصيرة، ويعيشون الحياة على ضوء من رسالات الله.

ويقول ابن اسحاق الثعلبى أن هود عليه السلام عندما مات دفن فى حضرموت.

والدراسات التى تحدثت عن نبى الله هود عليه السلام لم تتعرض للمرأة فى حياته. . فقد ركزت على أثاره ودعوته للإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر. . وركزت أيضا على عقاب الله لقومه ليكونوا عبرة لمن يعتبر. .

* * *

صالـح عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ
لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾

(الشعراء: ١٤١ ـ ١٤٣)

صدق الله العظيم

جاءت رسالة صالح عليه السلام إلى قومه فى ثمود. . وكانت الحضارة فى هذه البلاد قد بلغت شأنا كبيرا، وانتشر الثراء بين ربوعها. . وعاش القوم فى رغد من العيش. . فالأرض مزدانة بالخضرة. . والمراعى الكثيرة تضيف إلى ثرواتها الزراعية ثروات جديدة. . والحياة المعمارية بلغت مكانة مرموقة . . حيث القصور تنتشر فى السهول، والجبال . .إلا أنهم مع ذلك قد ابتعدوا عن الإيمان بالله رغم كل هذه النعمة الكبيرة التى منحها الله لهم.

هذه الحياة الرغدة يصورها القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقد كانت قبائل ثمود تعبد الأصنام . .وجاء صالح يدعوهم إلى نبذ هذه الأوثان. .وأن عليهم أن يذكروا نعم الله، ولا يمكن أن تستمر الحياة بعد أن انعدمت صلتهم الروحية بالله وأنهم يخرون سجداً لأوثان لا تشفى مريضاً، ولا تعطى المحتاج ما يحتاج إليه، ولا تحل للناس مشكلة. . إنها حجارة صماء بكماء عمياء ليس لها من أثر إلا أنها تسىء إلى عقولهم. . وأنهم لم يتعظوا بما أصاب قوم عاد

من قبل عندما ضلوا طريقهم فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية قضت عليهم، ولكن القوم أصموا آذانهم أمام دعوة صالح.

ورأى الأغنياء أن دين صالح لا يدخل فيه إلا الضعفاء وهالهم أن يتساووا مع هؤلاء الفقراء.. وظلوا على كفرهم بدعوة صالح.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٤١ - ١٥٤].

عانده القوم، وأصروا أن يأتي بمعجزة، والمعجزة حددوها بأنفسهم بأن تخرج من وسط الصخور ناقة عشراء.

وتوجه صالح بقلبه إلى الله، فإذا بالصخور تنشق عن ناقة ضخمة، وهلل المؤمنون وكبروا، وقال صالح:

﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ [هود: ٦٤].

وكانت هذه الناقة تدر لبنا كثيراً. . وحافظ القوم على عهدهم خوفاً ورهبة. . بينما كان زعيم القوم «ذؤاب بن عمرو» يمتلىء قلبه حقداً. . فهو يرى تكاثر عدد المؤمنين بصالح، ويرى أن الناقة الضخمة العشراء قد ولدت وأنها وفصيلها ترعيان فى الأرض ولا أحد يجسر على الاقتراب منها خوفاً من وعد الله كما أوحى به الله إلى صالح.

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القمر: ٢٧، ٢٨].

وازداد قلبه حقداً عندما علم بإيمان خطيب ابنته بدعوة صالح عليه السلام. . ودبرت زوجته «عنيزة» ابنة غنم ابن مجلز مؤامرة لقتل الناقة. . استخدمت فى هذه المؤامرة كل دهاء المرأة، فاستأجرت «قدار بن سالف بن جزع» ليقتل الناقة، على أن تقدم له أموالا كثيرة وتزوجه ابنتها. وكانت هناك امرأة أخرى فى غاية الجمال اسمها «صدفة بنت المحيا بن زهير» انفصل عنها زوجها لإيمانه بصالح، وكان قد سبق أن تقدم لها رجل دميم الوجه وهو ابن عمها فى نفس الوقت واسمه «مصدع»، فطلبت منه أن يقتل الناقة وأعطته وعداً بأن تتزوجه. واتفقا قدار ومصدع على تنفيذ المؤامرة، وجندا معهما سبعة آخرين لقتل الناقة ووصفهم القرآن الكريم بقوله:

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل: ٤٨].

وجاء نبأ مقتل الناقة إلى صالح فحزن حزناً شديداً، فكيف تسول لهم أنفسهم قتل هذه الناقة التى كانت آية من آيات الله . . !

لقد تعاون كل من قدار ومصدع فى قتل الناقة، أما فصيلها فقد أنطلق بسرعة مذهلة حيث دخل فى الصخرة التى خرجت منها أمه. ولم يظهر له أثر بعد ذلك.

﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وعندما نجحت مؤامرة هؤلاء التسعة زادوا إثما وإجراما فسولت لهم أنفسهم قتل صالح، ولكن أثناء جلوسهم يدبرون المؤامرة لقتل نبى الله سقط عليهم سقف الحجرة فلاقوا حتفهم.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١].

وخرج صالح عليه السلام وأتباعه من ثمود، تاركا هؤلاء الكفرة لعذاب الله وانتقامه.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٦، ٦٧].

* * *

إبراهيم عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ
ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي
إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (إبراهيم:٣٧)

صدق الله العظيم

وتمضى بنا الأيام إلى أيام إبراهيم عليه السلام . .

إنها قصة بالغة الثراء، لما فيها من أحداث وشخصات ولما تركت من أثار عميقة فى تاريخ البشرية كلها .

إن آزر يتزوج «يبونا» . . وعندما يذهبان إلى أحد العرافين يخبرهما أنهما سيرزقان ولدا، وأن هذا الولد سوف يلقى به فى النار!

ويخشى الوالدان أن تتحقق نبوءة هذا العراف، وعندما يرزقان بإبراهيم، تخاف عليه الأم خوفا شديدا . . فقد أرقتها هذه النبوءة التى سمعتها من ذلك العراف . . ولكن ماذا تفعل . . ؟

لقد لاذت بالصبر، لعل الأيام تثبت خطأ نبوءة ذلك العراف وبدأ ينمو إبراهيم عليه السلام، وبدأ يدرك ما يجرى حوله من أحداث . . إن بابل الأرض التى ولد فيها إبراهيم مليئة بالأصنام . . والناس يعبدون هذه الأصنام المصنوعة من الأخشاب أو الأحجار . .

وتأمل الطفل الصغير إبراهيم هذه العبادات ولم يطمئن قلبه إليها، بل أنه كان يجادل أباه الذى يصنع هذه الأصنام عن قيمتها وأنها لا تنفع ولا تضر، ولم يستطع والده أن يقنعه بهذه العبادة ولا هو استطاع أن يقنع نفسه بأن هذه الأصنام لها فائدة . . أى فائدة، فلماذا جعلوا لها ساحة خاصة يذهبون إليها ويقدمون لها القرابين!؟

وظل إبراهيم يفكر فيما يجرى حوله. . فلا هذه الأصنام جذبته للاعتقاد بها، ولا ما يسمعه من تقديس الناس للملك الذى نصَّب من نفسه هو الآخر إلها قد جعله يؤمن بما يؤمن به الناس. . فالأصنام لا تنفع ولا تضر. . والملك «النمرود» مجرد بشر. . يأكل كما يأكل الناس، ويمرض كما يمرض الناس، ويموت كما يموت الناس؟ فكيف يكون إلها؟

لقد فكر إبراهيم عليه السلام فى كل ما يحيط به من مظاهر لم تقنع عقله. . سواء فى القرية التى ولد بها «قدام آرام». . أم فى المملكة التى تتبعها هذه البلدة «بابل». . فرأى أن كل ما يجرى فيها من طقوس وعبادات لا يتناسب مع النظرة السليمة ولا يتواكب معها.

وفكر طويلا. .

رأى النجوم وفكّر هل تستحق أن تعبد؟. . إنها تتألق فى السماء، ولكنها تأفل عندما يطلع النهار!

هل يعبد القمر الذى يرسل أضواءه الشاحبة فيبدد ظلام الليل، ولكن هو الآخر يعتريه الأفول!

هل يعبد الشمس التى تضىء الدنيا، وتملأ الحياة بالدفء وأسباب الحياة؟ ولكنها هى الأخرى ينتابها الأفول عندما تنحدر نحو المغيب.

واهتدى أن وراء هذا الكون خالقا عظيما.. هو خالق كل هذا الوجود.. وجعل له قوانينه التى يسير عليها، وهو الذى يحيى ويميت، وهو خالق الكواكب والشمس والقمر وكل ما فى الوجود.

وكان وحى الله.. وانطلق الخليل إبراهيم يدعو قومه إلى عبادة الله جل علاه.. ولم يجد إلا أذانا صماء.. وألسنة خرساء، وعقولا تحجرت فلم تعد تفكر.. فما داموا قد وجدوا أن أباءهم كانوا يعبدون الأصنام، فلماذا يخالفون الأباء.!

وكان من أمال إبراهيم عليه السلام أن يؤمن والده بدعوته.. وأن ينبذ عبادة الأصنام الذى يصنعها بيديه ويعبد الله الواحد الأحد، ولكن الأب سخر من أفكار ابنه.!

وقرر إبراهيم أن يحطم هذه الأصنام.. وأخذ فأساً وتوجه إلى الساحة التى توضع فيها هذه الأصنام، وعندما خرج الناس إلى الجانب الآخر من النهر فى احتفال لهم انتهزها الخليل فرصة وحطم الأصنام، وترك الفأس معلقة فى رقبة كبير الآلهة، حتى يسخومن قومه، ويقول لهم: ما فعل ذلك إلا كبيرهم!!

ويكتشف الناس حقيقة ما حدث، ويحاول إبراهيم أن يقنعهم بزيف اعتقادهم بأن يطلب منهم أن يسألوا الصنم القائم عن محطم هذه الأصنام..؟!

ويقررون القذف به فى النار!

ويأتى الأمر الإلهى:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وتجمع الناس عندما خبت النيران، وإذا بهم يصابون بالدهشة إن إبراهيم مازال سليما.. مشرق الوجه.. باسم المحيا.. ليس عليه أثر من نار ولا حتى من دخان.. وعلم الملك نمرود بهذه القصة، وأرسل أمرا بأن يمثل إبراهيم بين يديه، لقد خشى على نفوذه وملكه.. وجاءه خليل الرحمن، قوى الإيمان.. قوى الحجة.. شديد الثقة بالله.

ويدور حوار يحاول أن يقنع إبراهيم النمرود بالإيمان بالله.. ويحاول النمرود أن يقنع إبراهيم بأنه هو الذى يجب أن يعبد.. ويدور حوار طويل.. يقول له خليل الرحمن:

إن الله يحيى ويميت. ويجيبه النمرود: وأنا أحيى وأميت.!

وهو يقصد بأن بإمكانه أن يحكم على أى إنسان بالموت وينفذ فيه حكم الإعدام، ويأتى بآخر محكوم عليه بالموت فيأمر بإطلاق سراحه.. وهكذا يكون قد أمات أحد الأحياء وأحيا أحد الأموات!

وقال له إبراهيم الخليل: بأن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب.. فبهت الذى كفر.

لقد ضاق إبراهيم الخليل ذرعا بهؤلاء الناس الذين أعماهم الجهل وضيق الأفق، فتمرغوا فى أوحال الشرك.. وكان قد تزوج من ابنة عمه «سارة». وقرر أن يرحل عن هذه البلاد، وأن يعبر نهر

الفرات متجها إلى أرض كنعان «فلسطين» وصحب زوجته وابن أخيه لوط. . ولأنه عبر نهر الفرات سمى «العبرانى». . كما أطلق لقب العبرانيين على ذريته من بعده من نسل يهوذا، واستقر بمدينة حبرون ومعه زوجته، وفى نفس الوقت ذهب ابن أخيه لوط إلى مدينة سدوم، واستقر بها، وأخذ يدعو الناس إلى عبادة الله وتوحيده.

عاش إبراهيم الخليل فى أرض كنعان فترة من الزمن ثم توجه إلى أرض مصر عندما أصاب أرض كنعان القحط فى إحدى السنوات. . وكانت معه زوجته سارة. . كانت سارة عقيما لم تنجب، ولم يعد لها أمل فى ذلك. . فقد مضت السنوات الطوال ولم يتحقق لها ذلك. . كما أن العمر امتد بها وبزوجها. .

لقد أصبح خليل الرحمن شيخا.

وأصبحت سارة عجوزاً!

وفى مصر عاش خليل الرحمن إبراهيم وزوجته سارة، وعلم ملك مصر بقدومهما، فدعاهما إليه، وخشى إبراهيم عليه السلام على زوجته، فقد كانت جميلة رغم تقدمها فى السن، ولكن الله حفظها فلم يقترب منها الملك. .

وقرر الملك أن يهدى إلى سارة جارية، وكان هذه الجارية هى هاجر. . وكانت على قدر كبير من الجمال. فوهبتها سارة إلى زوجها إبراهيم. . وعادوا إلى أرض كنعان.

لقد أرادت «سارة» أن يتزوج إبراهيم عليه السلام من هاجر، لعله يرزق الولد الذى كان يأمله.

وبالفعل حملت هاجر بإسماعيل.. وإسماعيل هو جد رسولنا الكريم محمد بن عبد الله عليه الصلاة السلام.. ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام:

«إنكم ستفتحون مصر، وهى أرض يسمى فيها القيراط، فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما».. وفى قول آخر: ذمة وصهرا.

وتمضى الأيام.. وتنجب هاجر ابنها إسماعيل.. وعرف الخليل أن هذا الوليد وهو جزء منه قد ملأ عليه حياته وغارت «سارة» من هاجر، وطلبت منه أن يبعدها ويذهب بها إلى مكان آخر بعيدا عنها، واختار لها مكانا بوحى من ربه فى واد غير ذى زرع.. وهو مكان (مكة الآن).

وكان عمر إبراهيم الخليل ٨٦ عاما عندما أنجب إسماعيل!.. لقد أخذ إبراهيم زوجته هاجر وابنها إسماعيل، وقطع بهما هذه المسافات الطويلة إلى أن وصل إلى مكان قفر لا ماء فيه ولا زرع ولا حياة.. ولا تحوم فى سمائه حتى طيور السماء.

ووسط هذا التيه المخيف قرر إبراهيم العودة إلى الشام وسألته زوجته:

ـ أأمرك الله بذلك . .

ـ نعم .

فأيقنت هاجر بأن الله معها . وأنها ستكون فى حفظ الله ورعايته هى وولدها الحبيب .

ذهب إبراهيم إلى الشام . . وعاشت هى مع ابنها فقاست الوحدة . . والخوف من المستقبل . . ونفذ الماء والطعام ، وأخذت تهرول بين الصفا والمروة بحثا عن الماء . . وأعياها المشى والجرى والإجهاد وذهبت لاهثة الأنفاس لتطمئن على وليدها . . فإذا بماء زمزم يتدفق من تحت قدميه . . وأخذت طيور السماء تحوم حول هذا الماء . . وشاهد الناس عن بُعد هذه الطيور المتكاثرة فى الفضاء ، فتوجهوا إلى المكان حيث وجدوا الماء . . وكان هؤلاء الناس هم قبيلة «جُرهم» الذى تزوج منهم إسماعيل فيما بعد . . لقد جاءوا وضربوا خيامهم ومساكنهم حول هذا البئر ، وآنسوا هاجر وإسماعيل . . ودبت الحياة فى هذا المكان القفر . .

وكان يتردد عليهم إبراهيم الخليل . . فقد استجاب الله دعوته وهو يترك زوجته ووحيده فى هذه الصحراء الموحشة عندما نادى ربه قائلا :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ من ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وتمضى الأيام.. ويرحل إبراهيم عليه السلام لزيارة ابنه وزوجته، ولكنه يرى رؤيا.. والرؤية تأمره بأن يذبح ابنه إسماعيل.. إنها رؤيا نبى.. ورؤيا الأنبياء صادقة.

وكان عليه أن يمتثل إلى هذا الابتلاء، مع حبه لابنه وقرة عينه، ولكنه أمر الله، وأمر الله لابد أن ينفذ لأننا لا نعرف حكمة الأقدار.. فما دام الله قد أمر فلابد أن يمتثل للأقدار.

اصطحب إبراهيم ابنه إسماعيل خارج مكة، وأخبره برؤياه ووجد الأب الابن ممتثلا لأمر الله:

فقال لأبيه: **﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].**

وأخرج الأب سكينا، ووضع الابن فى موضع الاستسلام للذبح، ولكن الله فداه بذبح عظيم.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾ [الصافات: ١٠٣ - ١٠٧].

شب إسماعيل عليه السلام.. وتزوج من قبيلة جرهم.. وتروى كتب السيرة أن إبراهيم عليه السلام كان يزور ابنه من الحين إلى آخر، وأنه ذهب ذات يوم، ولم يكن إسماعيل فى البيت، ووجد زوجته وسألها عن حالها وشكت له عن سوء الحال، والفقر، فأخبرها عندما يعود إسماعيل أن يطلب منه أن يغير عتبة داره!.

وعندما عاد إسماعيل وقصت عليه زوجته أمر هذا الشيخ الذى جاء وسأل عنه، وسأل عن أحواله، وأنه أمرها أن تخبره أن يغير عتبة داره.. فطن إسماعيل أن الذى جاء هو والده وأنه يريد أن يطلق زوجته التى لم تقف بجانبه كزوجة كما ينبغى، فما كان لها أن تتبرم بسوء الحال!

وتقول الروايات أنه جاء مرة أخرى، فوجد إسماعيل قد تزوج من امرأة أخرى.. وجاء أبوه إبراهيم عليه السلام ولم يكن إسماعيل أيضا موجودا فى المنزل، وعندما سألها عن أحوالهم، أثنت على زوجها وعلى حياتها، فطلب منها عندما يعود إسماعيل أن يخبره أن يثبت عتبة داره.. وهذا يعنى أن يحتفظ بزوجته، ويعاملها معاملة حسنة.. وعمل إسماعيل بالوصية، وأنجب منها أولاده.

وهذه القصص التى تروى تعنى أن إبراهيم عليه السلام، كان يتردد على ابنه إسماعيل، وكان حريصا على تتبع أحواله، وكان دائم التردد عليه كلما سنحت الظروف.

وجاء إبراهيم لزيارة ابنه ذات يوم.. وقد اعتزم أن يحقق ما أوحى به الله من إقامة بيت الله الحرام.. لقد قام إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل بإقامة أول بيت وضع للناس، ليكون مثابة للناس وأمنا، ومكانا للعبادة.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

ويقال أن بعد زواج إبراهيم بهاجر بثلاثة عشر عاما بشرت الملائكة إبراهيم بابن له من زوجته سارة وهو إسحاق، وعندما سمعت هذه البشرى من الملائكة: ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات: ٢٩-٣٠].

وقد حملت سارة وهى فى سن التسعين، وهذا بالطبع معجزة لأن المرأة يتوقف حملها فى حوالى سن الخمسين!

وقد دفنت «سارة» عندما انتقلت إلى أكرم جوار فى مقبرة بجوار الخليل، وقبرها مازال موجودا حتى الآن.

أما هاجر فقد ماتت وهى فى الستين من عمرها ودفنت بجوار الكعبة.

وبعد أن ماتت «هاجر» و«سارة» تزوج إبراهيم الخليل مرة أخرى، وكان قد بلغ المائة وأربعين عاما. تزوج «قطوه ابنة يقطان»

من الكنعانيين، وتزوج من مكة «صحيون بنت وهب» ورزق من الأولى بخمسة أولاد، ورزق من الثانية بخمسة أولاد أيضا.

أى أن أولاد إبراهيم الخليل عليه السلام كانوا عشرة غير إسماعيل وإسحاق!

وقد مات إبراهيم الخليل عن عمر يناهز ١٧٥ عاما، ودفن فى مدينة الخليل بجوار زوجته سارة، وكان من مشيعيه ابناه إسماعيل وإسحاق.

وقد عاش إسماعيل ١٣٧ سنة، وكان له ١٢ ابنا وبنتا واحدة اسمها نسيمه التى تزوجت من العيص ابن عمها إسحاق، وأنجبت منه ولداً اسمه الروم.

* * *

لـوط عليه السـلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ
وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ
﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ
عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ
﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٣-١٣٨]

صدق الله العظيم

آمن لوط عليه السلام برسالة عمه خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام. . فهو ابن هاران شقيق إبراهيم، وقد تبناه عمه، وآثر لوط العيش مع عمه وهاجر معه من بابل إلى حاران، وتزوج، ثم هاجر إلى الشام، وفى الشام طلب من عمه أن يتجه نحو سدوم فى الأردن ليستقر بها، ويدعو إلى التوحيد فيها، ووافق عمه على ما انتواه ابن أخيه لوط، وزوده ببعض الماشية والأغنام والمال.

واستقر لوط فى مدينة سدوم. . وفوجىء بأن هذه القرية تمتلىء بالمحرمات والشذوذ، وأن الناس هناك يأتون الرجال شهوة من دون النساء.

ولم يقتصروا على هذا الفعل المشين، بل أنهم كانو إلى جانب ذلك قطاع طرق لا يأمن أحد يدخل قريتهم هذه من الاعتداء عليه، وسلب أمواله وما كان يمكن أن يرى لوط كل هذا الفجور ويلوذ بالصمت. . وأوحى الله إليه أن ينذر هؤلاء الناس ويدعوهم للطاعة والبعد عن كل ما ينافى الفطرة السليمة.

ولكن لم يجد أذناً صاغية، ولا بصيرة تفرق بين الهدى والضلال، ولا عيوناً ترى الفضائل. لقد أصموا آذانهم، وأغلقوا

عيونهم، وتركوا لأهوائهم التمرد على كل ما هو أخلاقى.. لقد عثوا فى الأرض فساداً.. ولم يستوعبوا دروس لوط لهم ولم يخشوا ما توعدهم من العقاب، بل طلبوا منه أن ينزل بهم العقاب الذى يتوعدهم به لو كان صادقاً.

وكان لابد أن يأتى أمر الله استجابة لدعاء لوط عليه السلام، فقد يئس من إصلاحهم، وسدت كل الطرق ليعودوا إلى صوابهم.

وذات يوم رأى خليل الرحمن أمراً عجباً.. فقد نزل عنده بعض الضيوف، وقدم لهم ما ينبغى أن يقدم للضيوف من طعام، ولكنه وجدهم لا تمتد أيديهم إليه، هناك أحس خليل الرحمن بالخوف منهم، ولكنهم طمأنوه أنهم رسل الله من الملائكة، وأنهم سوف يذهبون إلى «سدوم»، حيث ابن أخيه لوط، فإن الله سوف ينزل العذاب بهؤلاء الناس الذين انحرفوا عن الفطرة السليمة.. وخشى إبراهيم على ابن أخيه لوط.. ولكنهم طمأنوه على لوط وأسرته إلا امرأته. لأن امرأة لوط كانت مع قومها.. وتقر أفعالهم.. فلابد أن يصبها ما يصبهم.

ودخلت الملائكة «سدوم».. ورأوا فتاة تحمل الماء.. سألوها أن تستضيفهم.. أوجفت خيفة.. وخشيت عليهم.. فهى تعلم أن قومها يأتون الرجال شهوة من دون النساء.. فطلبت منهم أن يظلوا مكانهم حتى تستأذن أباها فى ذلك.

وجاءت الفتاة تخبر أباها «لوط» عليه السلام بهؤلاء الشباب الذين طلبوا منها استضافتهم فى بيتها.. وظهرت الحيرة على وجه لوط عليه السلام.

إنه يعلم ما سوف ينتظره لو استضاف هؤلاء الشباب، فسوف يطمع فيهم أهل القرية، وسوف يضعونه فى موقف حرج للغاية، وأنّى له بالدفاع عنهم.

ولكن طبعه فى الكرم والسخاء غلب عليه، وقرر أن يذهب إليهم بعيداً عن العيون، ويستضيفهم فى بيته على ما فى ذلك من مخاطر.

ودخلت الملائكة بيت لوط عليه السلام.

وأسرعت امرأة لوط إلى قومها تخبرهم بهؤلاء الشباب الذين يستضيفهم لوط فى بيته..!

أسرعوا إلى منزل لوط عليه السلام ليروا هؤلاء الضيوف الذين يمتازون بالجمال الفائق.

وعرف لوط ماذا يقصدون.. أخذ يحدثهم عن الفضيلة، وأن ما يفعلونه إثم لا يرضى عنه الله.. ويصور القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ

قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾[هود: ٧٧ـ٧٩].

ولما رأت الملائكة خوف لوط بعد أن حاور قومه ولم يسمعوا له، أخبروه أن يطمئن فهم رسل الله.

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود: ٨١].

وكان من الطبيعي أن يعود الاطمئنان إلى قلب لوط عليه السلام فقد عرف أن هؤلاء الملائكة هم رسل الله، وأنه قد آن الأوان أن تتخلص الحياة من هؤلاء الذين يعتبرون عاراً على الحياة .. وخرج بأولاده عندما جاء المساء، ولف الدنيا ظلام الليل.

وجاء وعد الله.. فإذا بسدوم قد جاءها عقاب السماء، وأصبحت أثراً بعد عين، وقد هلك مع الهالكين امرأة لوط فقد نظرت خلفها عندما خرجت مع زوجها فأصابها حجر قضى عليها، ومضى لوط وأولاده تحت جنح الظلام.

وعندما أصبح الصباح، نظر لوط عليه السلام، فإذا به يرى هذه القرية الظالم أهلها، وقد اجتثت من الوجود.. وكأنها لم يكن لها وجود.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القمر: ٣٣ - ٣٩].

كلمات موحية.. وإعجاز محكم.. يصور به القرآن الكريم هؤلاء الذين أعماهم الجهل والغباء عن فهم وحى السماء، فحاق بهم ما كان يستحقونه من عذاب. ولتمضى الإنسانية بعد ذلك فى طريقها.

تضل فتأتيهم رسالات السماء نوراً وهدى ومنهج حياة.! حتى تعرف أن الفلاح والسعادة فى اتباع هذا المنهج، وأن الخسران فى البعد عنه.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

وانتقل لوط عليه السلام بعد ذلك إلى مدينة «صور» حيث عاش هناك بصحبة ابنتيه «رثيا وذعرتا» .. بعد نجاتهم من هذا العذاب الذى حاق بقوم لوط.

وهذه القصة ترينا أن امرأة لوط رغم أنها زوجة نبى إلا أنها ضلت، واتبعت أهواء قومها، ولم تسمع ما كان ينادى به زوجها من هداية الله . . فكان جزاؤها العذاب شأن الذين لم يستمعوا إلى نداء الحق . . وذهبت كما ذهب هؤلاء الفاسقون من قومها إلى ما كان ينتظرهم من عذاب، وهوان.

وأن الإنسان لا ينفعه إلا السير على منهج الله، أما مخالفة هذا المنهج فهو الضلال المبين، والتيه فى متاهات الوجود.

* * *

يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ
وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ
اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (يوسف٢٣)

صدق الله العظيم

مرت الأيام.. وتقدمت الإنسانية.. وبزغت شمس الحضارة المصرية الفرعونية، تلك الحضارة السابقة التى لم ينقصها إلا الإيمان برسالة سماوية، لا تلك التى كانوا عليها بتقديس فراعنتهم وعبادتهم..

ومع الفراغ الروحى التى كانت تشكو منه مصر فى ظل حضارتها القديمة، إلا أنهم عرفوا التوحيد أيام إدريس، وفى عهد اخناتون.. ولكن سرعان ما جرفهم تيار العودة إلى تقديس الفراعنة وآمون رع.. وغير ذلك من الاعتقاد البعيد عن التوحيد الذى نادى به الأنبياء من آدم حتى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وبنوه من بعده.

كان إسماعيل عليه السلام ينادى بالتوحيد فى الحجاز.. وكان إسحاق ينادى بالتوحيد فى فلسطين.. وكذلك ابنه يعقوب الذى كان له أولاد كثيرون منهم يوسف عليه السلام الذى حباه الله وسامة وذكاء، حتى غار منه إخوته.. وذات يوم رأى يوسف عليه السلام رؤيا قصها على أبيه يعقوب «إسرائيل» بن إسحاق.. فقد كانت هذه الرؤية أن يوسف رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له.. وفهم الوالد تأويل هذه الرؤيا بأن يوسف سوف يتبوأ فى حياته

مكانة رفيعة، وخشى عليه من إخوته غير الأشقاء، فطلب منه ألا يقصص رؤياه على أحد، ولكن الأقدارلابد أن تسير فى طريقها . .

فقد كاد إخوة يوسف له بالفعل، وطلبوا من والده أن يأخذوا أخاهم معهم لكى يلعب ويلهو، وكان عمره ست سنوات، ثم عادوا إلى أبيهم عشاء يبكون، مدعين أن الذئب قد أكله، وجاءوا له بقميصه الملطخ بالدماء الكاذبة حتى قنعوا والدهم بأن الذئب قد أكله بالفعل، بينما قد تخلصوا منه بإلقائه فى بئر!

وقد أشار القرآن الكريم إلى اسم يوسف عليه السلام فى عدد كثير من السور، وأفرد له سورة كاملة «سورة يوسف» قص فيها القرآن الكريم قصة هذا النبى الكريم، وما لاقاه فى حياته من مؤامرات إخوته، إلى مؤامرة زوجة العزيز عندما شغفت به حبا، وإلقائه فى السجن، إلى أن خرج ليمارس حياته متقلدا خزائن مصر، ودعوته إخوته وأبويه ليعيشوا بجواره فى أرض مصر.

القصة كما يصورها القرآن الكريم، فى تسلسل جميل، وإيقاع خلاب، وتماسك فنى معجز . . يبدأها برؤيا يوسف عليه السلام . . ونصيحة الأب له:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ

أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: ٥، ٦].

وكان حدس يعقوب صحيحا، فقد كره إخوته إن يؤثر أباهم عليهم يوسف لوسامته وذكائه، وطلبوا من والدهم أن يأخذوا أخاهم معهم ليلعب ويرتع، وأنهم سيحافظون عليه، وطمأنوا والدهم بأنهم عصبة، وبالتالى لا خوف عليه من أن يأكله أحد الذئاب. . وأخذوا يوسف وألقوه فى أحد الآبار!

وجاءوا أباهم عشاءً مدعين أن الذئب قد أكله وجاءوا بقميصه ملطخا بدماء كاذبة. . قائلين لوالدهم أن الذئب أكله عندما كانوا يستبقون، ولم تنطل هذه الحيلة على الأب وصبر لأمر الله.

ومرت قافلة بجوار البئر، وألقى أحد أفرادها بدلو للشرب، فتعلق به يوسف، وفرحت القافلة بهذا الغلام الجميل الذى باعوه لعزيز مصر، وكانت امرأة العزيز عاقرا لا تنجب، ففرحت به فرحا شديدا.

ويشب يوسف. . فإذا به يزداد وسامة ورشاقة وذكاء وراق الفتى فى عين امرأة العزيز «زليخا».

ولكن يوسف رفض أن يخون عزيز مصر الذى أحسن رعايته، ورأى أنه لا يحق له أن يجرى وراء نزوات هذه السيدة. وكان لعزوف يوسف عن مبادلة زوجة العزيز الحب، دافعا لامرأة العزيز أن تصر

على أن تحقق ما تهفو إليه نفسها من نزوات مهما حاول يوسف الابتعاد عن مجاراتها فى أهوائها.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٥].

ويقول الرواة أنه عندما رفض ما طلبته منه واتجه صوب الباب، جذبته من قميصه فشق من الخلف، وعندما وجدت زوجها بصحبة ابن عمها عند الباب. . حاولت إقناعه أن يوسف أراد أن يراودها عن نفسها ولكنها أبت، ودافع يوسف عن نفسه بأنه لم يفعل ذلك ولكن فراسة ابن عمها أيقنت أنها هى التى راودت يوسف، لأن قميصه مقطوع من الخلف، ولو كان هو الذى همّ بها لقطع من الأمام. . وما كان منه أو من زوجها إلى أن قالا لها: ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وطلب منها أن تستغفر لذنبها.

ولقد وقف المفسرون طويلا أمام جملة ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قال بعضهم أن يوسف كاد أن يقع فى المعصية لولا أنه

تذكر الله فخاف وتراجع، وقال البعض الآخر أنه رأى جبريل. وقال آخرون.. بل أنه شاهد وجه أبيه.

ومهما كان الاختلاف فى التفسير، فإن الله قد وصف يوسف عليه السلام بأنه ﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.. وعباد الله المخلصين ليس للشيطان عليهم سبيل لقوله تعالى:

﴿فبعزتك لأغوينهن أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾[ص: ٨٣].

فيوسف نبى ابن نبى.. ويوسف لا ينسى أن الله أنقذه من غيابة الجب، وأن الله كان به رحيماً عندما أصبح عند عزيز مصر فى منزلة الابن ليعيش عنده مكرما منعما.. وهو سليل الأنبياء.. فمن المستحيل أن يراود هذه السيدة عن نفسها..

لقد عصمه الله على كل حال.. وشاع الخبر فى المدينة، وأنكر الناس أن تقع امرأة العزيز فى هذا الجرم، وعندما علمت امرأة العزيز بذلك.. أقامت وليمة ودعت نساء المدينة إليها.. إنها تريدهم أن يعرفوا أنفسهم بأنفسهم، ويقدرون موقفها من هذا الشاب البالغ الوسامة، عندما دخل عليهن يوسف، انبهرن بوسامته الفائقة حتى أنهن أخذن يقطعن أيديهن. وهن لا يدرين بذلك ـ بما معهن ـ من السكاكين التى يقطعن بها الطعام.. وقلن: ﴿حاش لله مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.. وهذا المشهد جعل الحب يشتعل أكثر فى قلب امرأة العزيز، وصممت على أن تحقق معه ما تريده!.

وفطن العزيز للأمر، وخوفا من الفضيحة أمر أن يزج به فى السجن إلى حين، حتى يقطع ألسنة الناس بالخوض فى هذا الحديث، وحتى يوقن الناس أن العزيز ما سجنه إلا لأن امرأته بريئة، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٢٣٩].

وفى السجن نرى مشهد آخر من حياة هذا النبى الكريم.. لقد كان يدعو إلى التوحيد وعبادة الله الواحد، والأخذ بما جاء فى الصحف التى نزلت على جده إبراهيم الخليل، واشتهر فى السجن بقدرته على تأويل الأحلام..

ودخل معه السجن فتيان.. ساقى الملك وخبازه.. وقد رأى كل منهما رؤية قصها على يوسف عليه السلام ليفسرها لهما..

قال ساقى الملك: أنه رأى نفسه فى المنام وهو يأتى بعنقود العنب ويعصره فى كأس الملك.

وقال الخباز: ورأى أنه على رأسه طبقا من الخبز وقد سارعت الطير لتأكل منه.

وفسر لهما يوسف حلم كل منهما.

قال للأول: أنه سوف يسقى الملك خمرا.

وقال للثانى: أنه سوف يصلب فتأكل الطير من رأسه.

والتفت يوسف الصديق إلى الساقى، وقال له: اذكرنى عند ربك.. أى عند الملك.. ولكن الشيطان أنساه ذلك، فلبث يوسف فى سجنه بضع سنين.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41)﴾ [يوسف: ٤١].

وفى سورة يوسف: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

ومرت سنوات.. وجاء الفرج ليوسف عليه السلام، عندما حلم الملك أنه رأى سبع بقرات سمان قد خرجت من النهر وتبعها سبع بقرات عجاف قبيحة المنظر هزيلة، فأكلت البقرات السمينة. وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات.

وأراد الملك أن يجد تفسيرا لما رأى، ولكن الكهنة عجزوا عن تفسير هذا الحلم العجيب.. ساعتها تذكر ساقى الملك يوسف عليه السلام وقدرته على تأويل الأحلام، وذكر للملك ذلك، فأبطأ فى طلبه.. ولكن الحلم استبد بالملك لدرجة أنه كان مصرا على تأويله، ولم يأبه بقول الكهنة له إن ما رآه مجرد أضغاث أحلام.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ وأمر الملك ساقيه أن يذهب إلى السجن، ويقص الرؤيا على يوسف، ويعود بالتأويل..

قال الساقى ليوسف ما رآه الملك فى حلمه، وفسره له يوسف عليه السلام بأن مصر سوف يمر عليها أيام تنبت فيها الأرض، وتجنى الخيرات لمدة سبع سنوات، تعقبها سبع سنوات تجدب فيها الأرض.. وأن النصيحة التى يسديها للملك أن يدخر الغلال فى سنابلها حتى يمكن الاستعانة بها فى سنوات القحط!

وسُر الملك لهذا التفسير، وطلب حضور يوسف.. ولكن يوسف رفض الحضور إلا بعد أن يعرف سبب سجنه وهو البرىء الذى لم يقترف إثما.. وأن على الملك أن يسأل عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن!.

وأنكر النسوة أن يكون يوسف قد أتى بإثم يستحق عليه السجن كما أنكرن أنهن يعرفن شيئا عما ادعته امرأة العزيز.. وعندما سئلت امرأة العزيز اعترفت بأن يوسف برىء.. وأنها هى التى راودته عن نفسه.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف: ٥٠ - ٥٣].

وعندما ظهرت براءة يوسف، وحضر لمقابلة ملك مصر، أعجب الملك به وبمنطقه، وعندما سأله عن الوظيفة التى يريد أن يتقلدها عند الملك، طلب يوسف أن يكون على خزائن الأرض، واستجاب له الملك وبذلك تحقق حلم يوسف بالمكانة العالية التى سوف يصل إليها، والتى حسده عليها اخوته وكادوا له وألقوه فى غيابة الجب، للتخلص منه. . إن قدر الله واقع ولا يمكن لكائن من خلقه أن يحول دون تحقيق ما يريده الله.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف: ٥٤ - ٥٧].

وتقول التوراة أن الملك جعله على خزائن مصر، وزوجه بنت كاهن «أور» واسمها «أسنات بنت فوطى فارع» وسمى يوسف «صفنات فعنيح». . وكان يوسف عمرة ثلاثين عاما.

ويقول الإمام ابن كثير: «وعند أهل الكتاب أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جدا، وسلطه على جميع أرض مصر وألبسه خاتمه، وألبسه الحرير وطوقه الذهب وحمله على مركبه الثانى، وتوجه بين يديه، انت رب ومسلط، وقال له: لست أعظم منك إلا بالكرسى.

قالوا: وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة، وزوجه امرأة عظيمة الشأن وحكى الثعلبى أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف. وقيل أنه لما مات تزوج امرأته زليخا فوجدها عذراء، لأن زوجها كان لا يأتى النساء. فولدت ليوسف عليه السلام رجلين هما: افرايم ومنسا. قال واستوثق ليوسف مُلك مصر، وعمل فيهم بالعدل فأحبه الرجال والنساء».

وتمضى خطى الأيام والسنين.. ويسود الجدب البلاد.. وعم فيما عم بلاد كنعان.. وجاء إخوة يوسف إلى مصر طلبا للغلال، وعرفهم يوسف، ولم يعرفوه بالطبع، فلم يكن يدور بخلدهم أن يوسف قد وصل إلى هذه المكانة فى مصر، بل إنهم لم يكونوا يعرفون شيئا عن يوسف بعد أن فعلوا فعلتهم النكراء..!

لقد استفسر عن أحوالهم.. وقالوا له إنهم اثنى عشر ولدا، ذهب أخوهم «يوسف» وبقى أخوه مع والده.. فطلب منهم أن يأتوا بأخاهم غير الشقيق عندما يقدمون فى العام القادم.. هددهم بأنه لن يعطيهم شيئا إذا لم يحضروا معهم «بنيامين».!

ومع إقبال العام القادم طلبوا من أبيهم أن يأتى معهم «بنيامين» حتى يمكنهم الشراء من مصر، وإلا منعهم العزيز من ذلك، وبعد إلحاح وافق يعقوب بعد أن أقسموا له أنهم سوف يحافظوا عليه، ويعودوا به سالما.

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [يوسف : ٦٦].

وما جاء فى التوراة قريب مما جاء فى القرآن الكريم، وملخص ما جاء فى التوراة «أن يوسف عندما عرف إخوته. . طلب منهم أن يحدثوه عن أحوالهم وأخبروه بأن لهم أخا يدعى «بنيامين» مع والده إسحاق، ولكن يوسف اتهمهم بأنهم جواسيس، وأنه سوف يحجز أحدهم، حتى يأتوا بأخيهم بنيامين، ليتأكد من صدقهم، وعندما جاءوا فى العام التالى وقد وجدوا ثمن بضاعتهم فى متاعهم، جاءوا بهدايا له، وبالفضة التى تركها لهم فى متاعهم، والفضة التى سوف يشترون بها البضاعة الجديدة. وعندما جاءوا ومعهم «بنيامين» . . أولم لهم يوسف وليمة ودعاهم إلى داره».

ونمضى لنرى مشهداً آخر من قصة يوسف عليه السلام. . إنه أراد أن يستبقى معه أخوه بنيامين، ورسم لذلك حيلة بأن وضع (طاسة) فى أمتعة أخيه، وهذه الطاسة هى التى كان يشرب بها يوسف، ثم اتهمهم بالسرقة، وأمر بتفتيش أمتعتهم وتوعد من توجد (الطاسة) فى بضاعته. وأخذ يفتش أمتعة الآخرين قبل أمتعة بنيامين. . وعندما فتشوا متاع بنيامين وجدوا هذه الطاسة. . !!

أخذ الأخوة يستعطفون يوسف أن يأخذ أحدا منهم بدلا منه، ولكن يوسف رفض ذلك، واستبقى أخيه معه، وتركهم يرحلون إلى والدهم.

وعلم يعقوب «اسرائيل» بالخبر. فزاد حزنه، ولام أولاده على ما فعلوه بأخيهم كما فعلوا ذلك من قبل بيوسف.

والقرآن الكريم يقص ذلك بأسلوبه المعجز فى سورة يوسف:

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ
أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾
قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا
تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا
جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ
كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا
مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا
أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا
إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ
قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ
أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ
اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا
اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم
مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي
أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا
أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾

وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف: ٧٠ - ٨٧].

وأقبلوا بعد ذلك على يوسف ومعهم بضاعة ضعيفة لا يمكن أن يستبدلوا بها بضائع مصرية توفر لهم مئونة الحياة فى فلسطين، وطلبوا منه أن يتصدق عليهم، وقد فسر بعض المفسرين هذه الصدقة بأن يرد إليهم أخوهم بنيامين.

وعرف يوسف الصديق ما هم فيه من سوء حال، فتحركت فى نفسه نوازع الرحمة وقال لهم:

﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يوسف: ٨٩].

أيقنوا عندما قال لهم هذا أنهم فى حضرة أخيهم يوسف، وأن يوسف قد تحقق حلمه، وأصبح عزيز مصر، فقالوا له:

﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾.

﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ .

وأمرهم أن يذهبوا بقميصه، ويضعوه على عينى أبيه، سوف يرتد إليه بصره الذى ذهب حزنا عليه. . وطلب منهم أن يأتوا بأهلهم جميعا ليعيشوا على أرض مصر معه.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يوسف: ٩٤ - ٩٨].

لقد جاءوا إلى مصر ليعيشوا على أرضها،

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ

قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف: ٩٩ - ١٠١].

ويقول الإمام ابن كثير: «هذه أخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة، التى قيل انها ثمانون سنة، وقيل ثلاث وثمانون سنة، وهما روايتان عن الحسن وقيل خمس وثلاثون سنة، وقال قتاده، وقال محمد بن إسحاق: ذكروا أنه غاب عنه ثمانى عشرة سنة. قال: أهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة».

ويورد ابن كثير الروايات المختلفة عن عدد من جاءوا مع يعقوب، فالبعض قال أنهم كانوا ثلاثة وستين إنسانا والبعض الآخر قالوا: كانوا ثلاثة وثمانين إنسانا، وهناك قول آخر بأنهم كانوا ثلاثمائة وتسعون. وأنهم عندما خرجوا مع موسى بعد ذلك كانوا أكثر من ستمائة ألف مقاتل وفى نص أهل الكتاب كانوا سبعين نفسا.

لقد استقر المقام بيوسف وأهله فى مصر.. وأعطاهم ملك مصر إقليم الجوش شرق الدلتا تكريما لخدمات يوسف واعترافاً بفضله فى إنقاذ مصر من المجاعة التى حلت بها سبع سنوات.

وقد جمع يعقوب قبل وفاته أبناءه، ووصاهم بنفس الوصية التى أوصى بها جدهم إبراهيم الخليل وأبوه إسحاق.. إنه يشعر بدنو الأجل، وأنه سوف يموت فى أرض غريبة..

سأل أولاده: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ﴾ ؟

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وشعر يعقوب بالسعادة تغمر قلبه وهو يستمع إلى أبنائه، وحرصهم على الإيمان، واتباع طريق إبراهيم وإسماعيل وإسحاق..

كانت سعادة يعقوب، الذى سمى «إسرائيل».. بمعنى الذى سار ليلا مباركا مع أبيه إسحاق هربا من أخيه «العيص» أو عيصو..

وعندما مات يعقوب «إسرائيل» أوصى أن يدفن بجوار جده الخليل وأبوه إسحاق، بعد أن عاش بمصر سبعة عشر عاما، وقد نفذ يوسف وصية أبيه حيث دفن بالمغارة التى دفن فيها الخليل، وإسحاق.

ومرت الأيام والسنون.. وعندما حضر يوسف الموت كانت وصيته أن يحمله أهله ليدفن بجوار أبيه وأجداده. وقد حنطوا جثمانه، ووضعوه فى تابوت، ودفنوه، وكان عمره مائة وعشر سنة، وعندما خرج بنى إسرائيل من مصر فى عهد موسى عليه السلام، أخذوا جثمان يوسف معهم حيث دفن مع أجداده حسب وصيته.

وقصة يوسف عليه السلام بكل جمالها وجلالها ليست حكاية للتسلية ولكن الله تعالى قصها على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ليتأسَّ بها وليعرف المؤمنون كم فيها من معنى عظيم.. فيوسف قد تحمل فوق طاقة البشر وهو مازال فتى يافع السن.. عذبه إخوته..

ورموه فى أعماق الجب.. وبيع بثمن بخس دراهم معدودات، ثم عانى الغربة والاغتراب فى أرض غريبة عنه، وحرم الحنان الخالد متمثلا فى أبيه وأمه، كما فجع فى أقرب الناس إليه وهم إخوته الذين كادوا له ودبروا له كل هذه المصائب حتى يخلو لهم وجه أبيهم.. وأنه فى غربته تلك يعيش فى بيت العزيز فتراوده زوجته الحسناء عن نفسه، فتأبى نفسه التى تطبعت بطباع بيت النبوة أن تنزلق إلى هاوية الفحش، ويفضل السجن على الخيانة.. وفى السجن يدعو إلى ما كان يدعو إليه الخليل وابنيه إسماعيل وإسحاق، ووالده يعقوب.. يدعوهم إلى التوحيد، والتمسك بالفضائل، ونبذ عبادة الأصنام، وعندما يعلمه الله تأويل الأحلام التى تكون الطريق الذى يوصله إلى الحكم والوصول إلى أعلى المناصب، لا ينسى أهله.. ويعاملهم معاملة كريمة عندما دفعتهم الأقدار فى طريقه.. وعندما يلتم شمل الأسرة يتجه بكل كيانه إلى خالقه العظيم.. شاكرا له أنعمه وأفضاله.. ورعايته بعين الجلالة فى كل مراحل حياته.. كم تعذب.. وكم شقى.. وكم عرف معنى الغربة والاغتراب، ونكران الجميل، ولكن الله كان معه وأنزل على قلبه السكينة.. وكان هو الصابر.. الشاكر.. الحامد.. المقر بعبوديته لله جل علاه..

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف : ١٠١].

إنه فى كل مراحل حياته شاكرا لله نعمائه. . وعند انتهاء رحلته على الأرض يستشعر جلال الإيمان، وقوة اليقين. . ويترك كل شىء لله. . فهو وليه فى الدنيا والآخرة. . أما منتهى أمانيه أن يموت مسلما ويلحقه ربه بالصالحين!

ويلخص لنا الدكتور محمد سيد طنطاوى فى تفسيره ما قاله صاحب الظلال بقوله: «والسورة كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكى واضحا فى موضوعها وفى جوها وفى ظلالها وايحاءاتها، بل ان عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة. . ففى الوقت الذى كان الرسول ﷺ يعانى من الوحشة والغربة والانقطاع فى جاهلية قريش ـ منذ عام الحزن ـ كان الله تعالى يقص عليه قصة أخ له كريم وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهو يعانى صنوفا من المحن والابتلاءات، محنة كيد الأخوة، ومحنة الجب، ومحنة الرق، ومحنة امرأة العزيز، ومحنة السجن، ثم محنة الرخاء والجاه والسلطان. . فلا عجب أن تكون هذه السورة بما احتوته من قصة ذلك النبى الكريم، ومن التعقيبات عليها بعد ذلك. . تسلية للرسول ﷺ وأصحابه عما أصابهم من أعدائهم، وتسرية لقلوبهم، وتطمينا لنفوسهم.

ولكأن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: كما أخرج يوسف من حضن أبيه ليواجه هذه الابتلاءات كلها، ثم لينتهى بعد ذلك إلى النصر والتمكين. كذلك أنت يا محمد ستخرج من بلدك مهاجرا، ثم تعود إليها فى الوقت الذى يشاؤه الله ظافرا منتصرا.

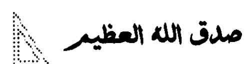
* * *

أيــوب عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

[الأنبياء: ٨٣، ٨٤]



في قصة أيوب عليه السلام أكثر من مغزى. . فهذا الرجل الذى رضى بقضاء الله وقدره. وصبر على ما أصابه لم يكن يدرى أن الله سيجزيه خيرا كثيرا على صبره. كما ترى فى قصة أيوب عليه السلام أكثر من معجزة. . والمعجزة لا تعلل . . بمعنى أننا يجب ألا ننكر المعجزة، ونقول أنه من غير المعقول مثلا أن يرد له أولاده الذين ماتوا، ويعيد إليه صحته بعد هذا المرض الطويل الذى استمر حوالى سبع سنوات . . وذلك لسبب بسيط جداً وهو أن هذه المعجزة ليست من عند أيوب، ولكن من عند الله سبحانه وتعالى، وهو يقول للشىء كن فيكون.

إن نبى الله أيوب من نسل إبراهيم عليه السلام، وزوجته «السيدة رحمة» من نسل يوسف عليه السلام، وقد رزقه الله الصحة والعافية، وكان ثريا ويملك إبلاً وأغناماً كثيرة، ورزقه الله سبعاً من الأولاد. . وكان شاكراً لنعم الله.

وابتدأ البلاء. . فإذا بمواشيه تنفق، وإذا بثروته تتبدد. . ولم يكن يتردد على لسانه سوى الشكر لله العزيز الرحيم ويقول: « الحمد لله على ما أنعم وسلب هو مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شىء قدير»

وتتوالى الكوارث فيسقط البيت على أولاده السبعة ويأتيهم الموت. . ويأتيه النبأ الفاجع فيبكى أولاده ولسانه يردد: « إنا لله وإنا إليه راجعون».

وبعد ذلك ابتلى هو نفسه بالمرض. . أصبح طريح الفراش سبع سنوات كاملة. . وكانت زوجته رحمة دائبة العناية به. . صابرة معه على ما أصابه من ضرر. . راضية بقضاء الله وقدره. . ظلت معه فى محنته صابرة راضية. .لقد ضاعت ثروة زوجها فصبرت، مات أولادها ورضيت بقضاء الله. .وظلت مع زوجها المريض الفقير تسهر على راحته، وتعمل لتوفر له الطعام والشراب. . بنفس راضية قانعة. .

وذات مرة ذهبت إلى السوق لبعض شئونها وتأخرت قليلا وأقسم «أيوب» أن يضربها لو كتب الله له الشفاء مائة ضربة، ثم طردها من منزله!

ومرت الأيام وأيوب يتجه بكل قلبه إلى الله أن يفرج همه. .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤].

لقد توجه إلى الله بكل كيانه أن يعيد إليه الصحة ويرضى عليه، وتداركته رحمة الله سبحانه وتعالى وأوحى إليه سبحانه:

﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص: ٤٢].

وضرب أيوب الأرض فتفجر منها الماء فشرب منه واغتسل وعادت إليه صحته وعافيته.

وفكرت «رحمة» فى أمر زوجها. .وقررت أن تذهب إليه، لتعيش معه بعد أن، تستعطفه، وما كادت تدخل الدار حتى وجدته فى تمام الصحة والعافية، فسجدت لله شكرا ثم سألت زوجها وهو مازال مصرا على ضربها المائة ؟!

ووقف أيوب حائرا بين محاولته أن يبر بقسمه، وبين حبه وعطفه على تلك الزوجة الحانية التى وقفت بجانبه فى أشد لحظات حياته بؤسا وألما. . ولكن رحمة الله فوق كل رحمة. .إن رحمة الله لا تعادلها رحمة فى الوجود كله. .لقد سمع نداء ربه:

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ ﴾ [ص : ٤٤].

وبر أيوب بوعده حسب ترخيص ربه له بأن يضرب زوجته بمائة قشة مرة واحدة.

لقد شعرت رحمة بأن الله سبحانه وتعالى أسبغ عليهم رحمته وكرمه. .وأنه سوف يستجيب لدعاء هذا النبى الصابر. .فطلبت منه أن يدعو الله أن يرد لهما أبناؤهما. .وجاء الأمر الإلهى:

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص : ٤٤].

وسجدا لله شكرا، وما كادوا يرفعون رءوسهم حتى دخل عليهم أولادهم . . وارتفعت صيحات التكبير لله على فضله وكرمه .

لقد صبر أيوب على قضاء الله . . لم يتبرم . . ولم يذكر لسانه إلا الله فأظله الله برحمته، وأنعم عليه. وأعاد إليه الثراء والصحة والولد . .

وسبحان الله القادر على كل شيء . . والذى يقول للشيء كن فيكون .

* * *

يونس عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى
الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ
الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾
فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ
إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ (الصافات: ١٣٩ - ١٤٤)

صدق الله العظيم



الحديث عن يونس عليه السلام يثير فى النفس العديد من علامات الاستفهام. . الإجابة عليها توضح كيف يجب على الإنسان أن يطيع أوامر الله. . وأن يرضى بقضاءه. . لأن الله يعلم ونحن لا نعلم. . والله يعرف ما وراء الأسرار. . ونحن لا نعرف شيئا. . فطاعة الله واجبة. . والصبر فى القضاء من صميم الإيمان . . إن قصة سيدنا يونس عليه السلام توضح للإنسان عظمة القدرة الإلهية. . فإذا كانت هناك قوانين تسير عليها دنيا الناس. . فإن خالق القانون يمكنه أن يعطل هذا القانون. . وهذا ليس بقدرة الإنسان. . فإذا كانت من طبائع الأشياء أن المعدة تهضم وتمثل ما يدخل جوفها. . فإن المعجزة الإلهية عطلت هذا القانون بالنسبة لمكوث يونس فى بطن الحوت دون أن يمسه سوء. .

لنبدأ القصة. . ومن خلال خيوطها يمكننا أن نرى ما فيها من مغزى دون حاجة إلى توضيح المغزى. . لأن المغزى واضح فى نسيج القصة نفسها. .

وسيدنا يونس. . اسمه بالكامل. . يونس بن متى. . وقد جاءته الرسالة وكان فى الثامنة والعشرين من عمره. . وقيل أن الزمن الذى وجد فيه نبى الله كان فى زمن الطوائف الذين حكموا الفرس. . وقد

أطلق عليه البعض يونان بن ماتى. . وقد اختلف من تناولوا سيرته هل متى أو ماتى. . اسم الأب. . أو اسم الأم. . ومايعنينا هنا هو أن الله سبحانه وتعالى ذكر قصته فى القرآن الكريم. . أما التفاسير فقد تناولت القصة بأكثر من أسلوب. . وإن كان المغزى فى النهاية لا يختلف عليه أحد. .

فقد قال البعض: أن يونس مكث فى بطن الحوت أربعين يوما. . وقال البعض الآخر: لقد مكث عدة أيام ولياليى، وقال الآخرون: بل مكث ثلاثة أيام. . ومايعنينا هنا أن يونس قد ابتلعه الحوت بالفعل. . وسواء مكث عدة أيام وليال أو حتى عدة ساعات. . فالمعجزة موجودة. . وهى أن يونس عليه السلام وجد نفسه فى ظلمات بطن الحوت. . وأن معدة الحوت لم تهضم جسده. . بل ظل سليما. . يشعر بالوحدة والرهبة فى هذا الظلام الذى يحيطه. . ظلام البحر وظلام أعماق الحوت. . ولا أحد يعرف هذه الرهبة التى لا يمكن تصور مدى عنفها. . ومدى ما يمكن أن يعيش فيه الإنسان من رعب إلا من يعيش هذه التجربة. . وهى تجربة مستحيلة. . فلم تتحقق إلا مرة واحدة. . ولم يجربها إلا شخص واحد، وهو يونس عليه السلام. .

ولك أن تتخيل إنسانا يعيش فى سجن الظلمات هذا. . داخل بطن الحوت. . ثم كيف يمكن أن يكون دعاء نبى يجد نفسه فى هذا

السجن . . ويشعر بالذنب . . إنه يتجه بكل كيانه إلى الله ليغفر له ما قدمت يداه . .

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٢].

ولكن لماذا أبق يونس . . ولماذا أذنب؟ وما هو هذا الذنب الذى ارتكبه حتى امتحنه الله هذا الامتحان الرهيب؟

إن يونس عليه السلام أخذ يدعو قومه إلى التوحيد . . وإلى عبادة الله وحده . . والسير فى الطريق المستقيم . . والبعد عن الضلالات وطريق الغواية . . ولكن قومه صموا آذانهم عن دعوته فلم يستجيبوا لها . . ووعده الله سبحانه وتعالى أنه سوف ينزل عذابه بهؤلاء الناس . . وعليه أن يصبر لحكم الله . . وقال يونس للناس أن الله سوف ينزل عليهم عقابه . . فاستهزأوا أول الأمر . . وخرج يونس عليه السلام . . قبل أن ينزل العذاب . . خرج دون أن يأذن الله له بذلك . . وشاهد الناس نذر العذاب . . فقد بدأت أماراته . . وخشى الناس العذاب . . فتابوا إلى الله . . وتوسلوا إليه أن ينزل عليهم رحمته . . فتاب الله عليهم . . ووقف يونس ينتظر ماذا يفعل الله بالناس . . ولكن شيئا لم يحدث! . .

فخشى أن يعود إلى قومه فيزدرونه ويسخرون منه . . فابتعد عن قومه . . هربا منهم . . وتوجه بعيدا . . حيث وصل إلى شاطىء البحر . . ووجد سفينة فركبها . . ولكن السفينة سارت فى طريقها فترة ثم توقفت عن السير . . هنا توجه قائدها إلى الركاب . . وقال لهم إن فيهم واحداً مشئوما . . وقرروا أن يقوموا بقرعة . . ومن تقع عليه القرعة يلقونه فى البحر . . ووقعت القرعة على يونس بعد إجرائها عدة مرات . . وكان هناك حوت يحوم حول السفينة كأنه مأمور أن ينتظر هذا الشىء الذى سيلقى له . . وألقى يونس بنفسه فى البحر . . والتقمه الحوت . . وابتلعه! . .

وفى تلك الأعماق المظلمة . . وفى هذا السجن الرهيب شعر يونس . . بأنه مازال على قيد الحياة . . وأنه فى جوف الحوت . . وأن معدة الحوت لا تضغط عليه . . ولكنه عاش فى رعب وخوف وفزع . . وتذكر كيف أنه خرج من القرية قبل أن يقع العذاب عليه دون أمر من الله . . فتاب إلى الله وأناب .

إن القرآن الكريم وصف هذا الحادث فى قوله تعالى :

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات : ١٤٢].

بمعنى أن الحوت التقمه بسبب ارتكابه ما يلام عليه . . ولكن الله كان يريد امتحانه . . فهو من المسبحين . .

﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات ١٤٣ ، ١٤٤].

ومعنى هذا أنه لأنه من المسبحين لله فإن الله نجاه. . وإلا لظل فى بطن الحوت. . ثم أصبح البحر مقبرته إلى يوم البعث. .

لقد نادى يونس ربه فى سجنه فى بطن الحوت. .

﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وغفر الله له. . وأوحى إلى الحوت أن يلفظه. . ولفظه الحوت فى مكان لا زرع فيه ولا نبات. . حيث خرج إلى الدنيا من جديد. . كان سقيما عليلا من طول سجنه. . فأنبت الله شجرة من يقطين فأظلته. . إلى أن استرد عافيته. . وعاد إلى قومه. . ليتم رسالة الله. . وآمن به الناس وزادوا به تعلقا. . وهكذا عاش يونس بين قومه. . والدرس الخالد. . درس الابتلاء مازال يلازم فكره. . ولكن كان عزاؤه رضاء الله عنه. . ورحمته له. . وإيمان قومه به:

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨].

قصة تذكر المؤمنين بقدرة الله ورحمته الواسعة بلا حدود.. وتجاوزه عن الخطايا..ولكن المهم أن يتوب العبد..وأن يرجع إليه سبحانه ويسبحه ويقدسه..

وإذا كان الأنبياء وهم صفوة الخلق يخطئون ويبتلون..فهم عظة وعبرة لغيرهم..حتى يرجعوا إلى الله..وعند الله دائما الهداية والرحمة والتوفيق..

أما بالنسبة لذكر المرأة ودورها فى حياة نبينا يونس عليه السلام.. فلم يرد ذكر أحداث مفصلة عنها.. ولكننا لا نغفل دورها كأم.. وزوجة.. وأخت.. فمن من البشر لم يكن للمرأة دور فى حياته!!

والأنبياء بشر كباقى البشر...

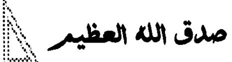
* * *

موسى عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ
عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ
إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ
فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ
وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ
فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا
أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

[القصص: ٧ – ٩]



صدق الله العظيم

قصة سيدنا موسى عليه السلام قصة حافلة.. مليئة بالأحداث.. ورسالته من الرسالات الكبرى، وقصته مع بنى إسرائيل قصة طويلة.. وأمه هى يوكابد.. وأبوه.. عمران.. وكلاهما من نسل اليهود الذين جاءوا مع يعقوب عندما كان يوسف عليه السلام الوزير الأول فى مصر..وعاشوا فى محافظة الشرقية..وقد قال الكهنة لفرعون مصر إنه سيولد من الإسرائيليين من يكون خطراً عليه، فأمر أن يقتل كل طفل يولد منهم..وحملت يوكابد بموسى وخافت عليه أن يذهب ضحية أحقاد فرعون..وتملكها الخوف عند ولادته خشية أن يشى بها أحد..وأوحى الله لها أن تلقيه فى اليم بعد أن تصنع له تابوتاً.

﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ...﴾ [طه:٣٩].

استجابت الأم لوحى الله، وصنع له والده التابوت، وأنزلته أمه فى اليم بعد أن أرضعته وطلبت من أخته مريم أن تسير بجوار الشاطىء لترى أخاها عن بعد..كان ذلك زمن الفيضان، وسرعان ما جرفه التيار..وسار التابوت وسط مياه النيل إلى أن ألقاه الموج إلى الشاطىء بالقرب من قصر فرعون..وبينما كانت زوجة فرعون

«رمسيس الثانى» تطل من شرفة القصر رأت هذا الطفل فأمرت الحراس أن يحضروه. .وجاء فرعون ليرى زوجته تحتضن الطفل بحنان، فقد أفرغ الله فى قلبها الرحمة على موسى. .وموسى هو الاسم الذى أطلق عليه بالعبرية ومعناه «المنتشل من النهر» وكاد فرعون أن يفتك به، ولكن الزوجة حمته من غضب فرعون على أساس أن يكون ابناً وقرة عين لهما.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾[القصص: ٩].

وأمرت زوجة فرعون أن يأتوا لها بالمراضع ليرضعن الطفل، ولكنه أبى أن يرضع من أية واحدة منهن. .وعلمت الأخت بأن أخاها امتنع عن الرضاعة فذهبت أخته التى كانت ترقبه من بعد إليهم وأخبرتهم بأنها تعرف مرضعة.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۝١٢﴾ [القصص: ١٢].

ووافقوا واسرعت إلى أمها تقص عليها الخبر، وفرحت الأم. .ما أعظم قدرة الله. .

إن موسى يعيش فى قصر الملك الذى كان من المفروض أن يقتله، وها هو الله جلت قدرته لا يحرم الأم أن تصبغ حنانها على وليدها. .فإذا بالعناية الآلهية تأبى أن يرضع الطفل من امرأة غير أمه لقد أسرعت وفى قلبها لهفة الأم وحنانها على ابن طال شوقها إليه.

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[القصص: ١٣].

وشب موسى فى قصر الملك. . وتعلم على يد الكهنة. . وعرف من أمه الحقيقة، وفهم منها أنه من نسل إبراهيم عليه السلام. . وأن ديانة العبرانيين تختلف عن ديانة المصريين. . ومن هنا عزف موسى عليه السلام عن الديانة المصرية القديمة. .

وكان موسى متعاطفاً مع العبرانيين، فقد علم من أمه أنه واحد منهم. . وعندما شب حدثت له هذه الحادثة الشهيرة إذ رأى أحد العبرانيين يتشاجر مع أحد المصريين واستغاث هذا العبرانى بموسى الذى وكز المصرى فقتله. . وشعر موسى بالندم على ما فعل، وفى اليوم التالى رأى نفس العبرانى يتشاجر مع مصرى آخر. واستغاث به للمرة الثانية، وهم موسى أن ينصره ولكن الرجل العبرانى تخيل أن موسى سوف يقتله هو فصرخ فى وجهه:

﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [القصص: ١٩].

ومن هنا شاع فى الناس أن الذى قتل المصرى بالأمس هو موسى. . وأجمع المصريون على قتله، وجاء رجل يحذر موسى وينصحه بترك مصر لأنه سوف يقتل، وقرر الهرب من مصر كلها خوفاً من انتقام المصريين، ومن انتقام فرعون فى نفس الوقت.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢١].

وسار موسى فى سيناء وتوجه إلى وادى مدين، حيث رأى الناس يتزاحمون حول أحد الآبار. .ووجد فتاتين تنتظران حتى يرد الرعاة، فتقدم موسى وساعدهن، وكانتا ابنتى نبى الله شعيب. وذهبتا تقصان على والدهما قصة هذا الرجل القوى الأمين الذى ساعدهما وأمر شعيب إحدى بناته أن تدعو هذا الرجل إلى منزله بينما جلس موسى فى الظل وهو لا يدرى ماذا يفعل، وإذا به يجد إحدى الفتاتين اللتين سقى لهما أمامه تدعوه إلى مقابلة والدها.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥].

وجاء موسى إلى شعيب وقص عليه قصته، واقترحت إحدى بناته أن يستأجر والدها موسى، وراقت الفكرة للأب الصالح، بل عرض عليه أن يزوجه إحدى بناته. . فقال لموسى:

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص: ٢٧].

وسعد موسى عليه السلام بهذا العرض الذى عرضه الشيخ الجليل وقال:

﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٨].

لقد قضى موسى قرابة العشرين عاماً فى وادى مدين وتزوج من «صفورة بنت شعيب» وهى الابنة الصغرى وعاش حياته سعيدا وقد أنجب منها ولدين «حبرشوم» و«أليعازر». . وبعد هذه المدة قرر موسى أن يعود إلى مصر.

كان قد بلغ الأربعين من عمره. . ووافق شعيب على ذلك وأخذ موسى زوجته وأولاده وبعض الأغنام والمواشى، وظل سائراً فى الصحراء فى طريقه إلى أرض مصر. . حتى وصل إلى طور سيناء. . كانت الليلة مظلمة. . وكانت الريح شديدة والجو فى غاية البرودة. . وحاول أن يستوقد النار، ولكنه لم يستطع وسط عواء الرياح، وبرودة الجو القارس. . ورأى على البعد ناراً. . وطلب من زوجته أن تنتظره حتى يأتى ببعض النار. . وقد ظن أن هذه النار لابد أن يكون بجوارها بعض الناس، وسوف يأنس بهم. . وسوف يساعدونه فى تلك الليلة الشديدة البرودة. . وذهب موسى وسط الظلام. . ولكنه سمع صوتاً يناديه :

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) ﴾ [القصص: ٣٠].

وتهيب موسى، وشعر بالخوف والرهبة. . ولكنه سمع نداء الله :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) ﴾[طه:١٧].

لقد أنزل الله السكينة فى قلب موسى فقال:

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه: ١٨ ـ ٢٣].

ثم استمع إلى قوله تعالى:

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: ٣٢].

ولكن موسى تذكر على الفور أنه قتل واحدا من المصريين، وأنه يخشى أن يفتك القوم به، وطلب أن يعاونه أخوه هارون فى مهمته.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٣، ٣٤].

واستجاب الله لهذه الرغبة:

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥].

ورجع موسى إلى زوجته، وقد ظهر النور على وجهه،

وقص عليها قصته وكيف كلم الله. ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]. وفرحت الزوجة المخلصة بأن زوجها أصبح نبياً. . فها هو زوجها نبى، وهى ابنة نبى.

رجع موسى إلى مصر لإنقاذ بنى إسرائيل من طغيان رمسيس الثانى بأمر من الله. . بأن يخرجهم من مصر؛ وينقذهم مما هم فيه من هوان. . وكان معه من ربه برهانين، ليقنع الناس بصدق رسالته وهو أن يلقى عصاه فتتحول إلى حية تسعى، وأن يضع يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء.

وذهب موسى ومعه أخوه هارون إلى فرعون. . يدعوه إلى الله وأن يترك بنى إسرائيل يخرجون من مصر، ولكن فرعون كذب دعوة موسى ورفض طلبه، ولم ير فى المعجزات التى قدمها موسى سوى أنها شكل من أشكال السحر، وأنه سوف يبطل هذه الدعوى. . وسوف يدعو السحرة ليكشفوا سحر موسى!!

ولكن زوجة فرعون استمعت إلى موسى وآمنت بصدق رسالته، وفرحت فرحاً عظيما بعودته إلى مصر. . فهى التى ربته وحمته من القتل. . وتوجهت إلى الله بهذا الدعاء.

﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١]. ويقص القرآن العظيم قصة موسى عليه السلام منذ مولده إلى يوم أن أرسله الله

لتبليغ الرسالة بهذا البيان المعجز رغم إيجازه الشديد.. فنرى أنفسنا أمام هذا البيان الساحر.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾﴾ [طه: ٣٧ - ٤٢].

لقد أمر فرعون أن يحضروا له السحرة، وجاءوا. .لقد ألقوا بعصيهم وحبالهم فإذا هى تتحول إلى أفاعى، وخاف موسى، وأوحى الله إليه أن يلقى عصاه فألقاها فإذا هى حية تسعى وتلقف ما صنع السحرة. . ولم يجد السحرة أمام هذه المعجزة إلا الإيمان برسالة موسى.

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا

إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٠ ـ ١٢٦].

وأوحى الله إلى موسى أن يفر وأتباعه من مصر، وخرجوا متجهين صوب فلسطين. . واقتربوا من البحر الأحمر، وشعر فرعون بأن بنى إسرائيل فى طريقهم إلى الخروج من مصر فتبعهم وبعض جنوده، ولحق بهم قرب شاطىء البحر الأحمر. . وأوحى الله إلى نبيه أن يضرب بعصاه البحر. . وما كاد موسى يفعل ذلك حتى انفلق البحر ووجدوا ممراً بين مياهه، وسار موسى وبلا وعى تقدم فرعون وراءه، وكان أمر الله للقضاء على فرعون.

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس: ٩٠].

لقد جرفهم تيار البحر فغرقوا، ونجا موسى وقومه.

وسار موسى وقومه يضربون فى صحراء سيناء بعد أن نجاهم الله. . وأنعم الله عليهم فإذا بالغمام يظلهم فى النهار، وينزل الله عليهم المن والسلوى، وإذا بموسى يضرب بعصاه الصخر فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا من الماء. .

وكان على بنى إسرائيل أن يشكروا الله وهم يرون هذه النعم وتلك المعجزات التى رأوها رأى العين، ولكن ما أقسى قلوبهم. . لقد

تركهم موسى عليه السلام ليذهب إلى جانب الطور الأيمن حيث الشجرة المباركة ليتلقى كلمات الله. . واستخلف عليهم أخاه هارون، ولكن ما كاد موسى يذهب إلى لقاء الله، حتى أضلهم «السامرى» فجمع الذهب من النساء ليصنع منه تمثالا لعجل له خوار. . فقد وضع آلة فى هذا التمثال ما يكاد يمر بها الهواء حتى ينطلق صوتا كخوار العجل. . وضل اليهود. . لقد عبدوا هذا العجل. . رغم تحذير هارون ورغم أن صفورة زوجة موسى وقفت تعارض نسوة بنى إسرائيل وتمنعهن من تسليم حليهن لهذا النصاب الذى اسمه السامرى. . لكنهم عبدوا العجل !

وعاد موسى غضبان أسفا. . لقد علم من الله سبحانه وتعالى وهو يملى عليه التوراة أنهم ضلوا الطريق، وعادوا يعبدون الصنم من دون الله.

ووقف موسى أمام قومه والغضب يملأ جوانحه وقال:

﴿ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه: ٨٦].

وردوا عليه:

﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ ﴾[طه: ٨٧، ٨٨].

وتوجه موسى إلى أخيه يلومه على أنه خرج للقاء الله أربعين يوما . . وعاد ليجد قومه فى هذا الضلال .

أين كان هارون؟

لماذا لم ينهم عن هذا الضلال؟

لقد توجه إلى أخيه معاتبا :

﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه: ٩٢ ، ٩٣].

ورأى هارون الغضب فى وجه أخيه، فأخذ يشرح له وجهة نظره :

﴿قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٤].

وأخذ يبرر الوضع بقوله :

﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف: ١٥٠].

ولم يجد موسى إلا أن يتجه إلى الله طالباً عونه فى هذه المحنة التى يتعرض لها :

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥١].

وتوجه موسى إلى التمثال وحطمه، لقد أحرقه وألقى به فى البحر، وطلب أن يأتى معه سبعون رجلا لملاقاة الله، ولكن كطبيعة

بنى إسرائيل دائماً. . أخذت الشكوك تملأ قلوبهم فطلبوا أن يروا الله جهرة وأنزل الله عليهم صاعقة كادت تودى بحياتهم لولا دعاء موسى الخاشع لله.

﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: ١٥٥].

لقد كانت رسالة موسى عليه السلام هى رسالة التوحيد. . أن يعرف الناس الله وأن يعبدوه حتى تلين قلوبهم بذكر الله، وأمر موسى قومه أن يؤمنوا باليوم الآخر. . وكانت الوصايا العشر من قبل الله لموسى حتى يعرف قومه الإيمان الصحيح.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: ١٤٥].

ولكن ما هى نصوص الوصايا العشر. . ؟

إنها كما أوردتها التوراة:

* «سبحنى وقدسنى أنا الرب إلهك، فاعبدنى ولا تشرك بى شيئاً، واشكر لى ولوالديك إلى المصير. أحييك حياة طيبة».

* «ولا تقتل النفس التى حرم الله، فأضيق عليك السماء بأقطارها والأرض برحبها».

* «ولا تحلف باسمى كذباً، فإنى لا أطهر ولا أزكى من لا يعظم اسمى».

* «ولا تشهد بما لا يعنى سمعك ولا تنظر عينيك ولا يقف عليه قلبك، فإنى أوقف أهل الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة وأسألهم عنها».

* «ولا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلى، فإن الحاسد عدو نعمتى ساخط لقسمتى».

* «ولا تزن، ولاتسرق، فأحجب عنك وجهى وأغلق دون دعوتك أبواب السموات والأرض».

* «ولا تذبح لغيرى فإنه لا يصعد إلى من قربان الأرض إلا ما ذكر عليه اسمى».

* «وأحب للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك»

* «لا تشته امرأة قريبك ولا تشته بيت قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره».

* «اذكر يوم السبت ـ أى يوم الراحة ـ لتقدسه، ستة أيام تشتغل وتعمل جميع أعمالك، أما اليوم السابع فللرب إلهك كى تستريح».

ولكن هذه الوصايا العظيمة لم تجد أذنا صاغية من اليهود على مر العصور.. ظلوا متقوقعين فى عزلة رهيبة.. يخدعون أنفسهم ويحاولون خداع العالم بأنهم شعب الله المختار.. وأن هذه الديانة وقف عليهم وغيروا فيها وبدلوا.

لقد تمردوا على موسى عليه السلام فى حياته . . إنه ما كاد يذهب لتلقى الألواح حتى ضلوا طريقهم، وساروا وراء السامرى !

وفى هذه الظروف القاسية المريرة على نفس موسى عليه السلام، كانت زوجته صفورة بنت شعيب تقف بجانب زوجها تشد من أزره . . وقد أصيبت صفورة بالحمى فى سيناء، ودفنت بها وكانت قد تجاوزت الأربعين من عمرها . . ولا أحد يعرف مكان قبرها على وجه التحديد .

وإذا كانت قصة موسى عليه السلام توحى بكل ما هو عظيم وجليل، وإذا كانت الشريعة التى جاء بها من السماء ترسم طريق الأمن والآمال لبنى إسرائيل . إلا أنهم خانوا الأمانة فى عهد موسى وبدلوا فى التوراة بعده . . وظلوا إلى يومنا هذا يخدعون أنفسهم ويخدعون العالم . . لقد ظنوا أنهم شعب الله المختار . . وأنهم خير الشعوب . . وغيرهم ليسوا فى مستوى البشر . . فعاشوا نكبة على الإنسانية طوال التاريخ . . فما اهتدوا . . ولكنهم ضلوا . . وهم لا يؤمنون باليوم الآخر . . وقد صب الله لعنته عليهم . . فعاشوا فى حوارى العالم وأزقته فى عزلة قاتلة . . لا يخرجون منها إلا للمؤامرات والدسائس والفتن!

* * *

طالوت وداود وسليمان عليهم السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)﴾ (البقرة:٢٤٧)

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)﴾ (النمل:١٥ ، ١٦)

صدق الله العظيم

نحن نعرف كيف ضايق اليهود نبى الله موسى عليه السلام. . لم يذعنوا لما طلبه منهم. . وعندما أمرهم عليه السلام أن يتوجهوا إلى أرض كنعان ذعروا لأنهم لا يريدون الحرب فهم يخشون القتال وذهبت كلمات موسى عليه السلام أدراج الرياح. . لم تجد منهم آذانا صاغية. !

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) ﴾ [المائدة: ٢٠].

وكان جوابهم:

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) ﴾ [المائدة: ٢٢].

وقالوا لموسى عليه السلام أيضاً:

﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾ [المائدة: ٢٤].

ولم يجد موسى عليه السلام أملا فى قومه، فرفع إلى الله أمره ودعاه أن يفرق بينه وبين هؤلاء القوم العصاة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة: ٢٥].

وكان عقاب الله شديدا، فقد استجاب لدعاء نبيه موسى عليه السلام، أما قومه فقد عاقبهم بالتيه فى سيناء أربعين عاما.

﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٦].

لقد عاشوا فى التيه.

ومات نبى الله موسى عليه السلام وقبله بعام كان قد انتقل هارون إلى جوار ربه.. وقاد «يوشع بن نون» خليفة موسى هؤلاء اليهود وطلب منهم أن يذهبوا إلى فلسطين، وتمكن بالفعل من دخول فلسطين وبيت المقدس.. ومات يوشع، وحاول اليهود الدخول فى حرب أخرى مع الفلسطينيين.. وحملوا معهم تابوت العهد.. وبه توراة موسى عليه السلام.. وكانوا يحملون تابوت العهد للتفاؤل به، ولكن الفلسطينيين انتصروا عليهم وأخذوا منهم تابوت العهد.. وتشرد اليهود من جديد.

ومرت السنوات وجاء النبى صمويل إلى بنى إسرائيل وكان يقضى بين بنى إسرائيل، وكان له ولدين يتوليان القضاء بين الناس.. ولكن الابنين ضلا الطريق وضاق الناس بهما ذرعا وطالبوا صمويل أن ينحى ولديه، وأن يعيِّن عليهما ملكا، حتى يستطيع أن

يجمع شمل بنى إسرائيل، ويعيد إليهم المجد الذى ضاع وكان جواب صمويل أن الله بعث لهم طالوت ملكا. .وكان طالوت هذا طويل القامة. .مهابا. .جميل الوجه. .ولكنه لم يكن ثريا. .وطالوت اسمه فى الكتاب المقدس «شاول». .ولم يعجب ذلك اليهود. .لأن طالوت ليس من نسل «لاوى» ولا من نسل «يهوذا». .وإنما من نسل «بنيامين». .كما أنه كان فقيرا. .وحاول صمويل إقناعهم بطالوت. .وأنه مؤيد من الله ودليل هذا التأييد كما يروى ذلك القرآن الكريم.

﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة:٢٤٨].

وانتظر الناس وعد الله. . فإذا جاء هذا التابوت الذى سبق أن أخذه الفلسطينيون عندما انتصروا عليهم فإن فى ذلك دليلا على تأييد الله سبحانه وتعالى لطالوت وأن يتولى الملك. . وتجمعوا أمام المعبد. . فإذا بالتابوت يهبط من السماء. . وهنا هتفوا به ملكا وقام صمويل يصب الدهن المقدس على رأسه، وأعلن طالوت ملكا على بنى إسرائيل وجهز طالوت جيشا كبيراً. . وحمل معه التابوت. . وأراد أن يمتحن طالوت جنوده ويعرف الصادقين منهم، فقال إنهم سيمرون على نهر، ومهما بلغ بهم الظمأ فلا يشربوا منه إلا حفنة

بسيطة بيدهم . . ولكنهم ما كادوا يرون النهر، حتى وجد أن معظمهم شربوا منه كثيراً يروون عطشهم بكل ما يملكون من قوة إلا القليل منهم . . وهنا عرف طالوت أن القلة التى سمعت كلامه هى التى سوف تصمد للقتال .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وتقدموا لمواجهة جيوش الفلسطينيين بقيادة جالوت . . وكان فارسا شجاعا . . وتهيب الجميع لملاقاة جالوت . . وكان طالوت قد أعلن أن من يقتل جالوت فسوف يزوجه من ابنته «ميكال» . . وتقدم شاب صغير السن وهو داود عليه السلام يطلب مقاتلة هذا العملاق، وسخر منه جالوت، غير أن داود وقد جاء إلى ميدان القتال ليقدم بعض الطعام لإخوته الثلاثة وكانوا جنوداً فى جيش طالوت . . أصر أن يقاتل جالوت . . وأخرج مقلاعه ورمى به هذا الفارس فوقع من فوق حصانه مضرجا فى دمائه، وبسرعة تقدم داود ونزع سيفه واجتز رأسه وأخذها إلى طالوت . . وتزوج داود من ميكال، وأصبح قائدا للجيوش، حاول البعض أن يوغر صدر طالوت على داود، وعرفت ابنته بذلك وأخبرت زوجها داود الذى هرب من وجه طالوت خوفا على حياته .

وحدث أن قامت معركة بين الفلسطينيين قتل فيها طالوت، ونادى الناس بداود ملكا. . وهكذا أصبح داود ملكا ونبياً لبنى إسرائيل. . مؤيداً بالزبور. . وهوقصائد وأناشيد كان يرتلها داود بصوته الجميل. . ومن هذه المزامير التى بلغت ١٥٠ قطعة نرى فيها داود يسبح الله بصوته الجميل ويدعو الله. . ومن هذه المزامير مثلا هذا الدعاء.

* «اتكل على الرب وافعل الخير. واسكن الأرض وارع الأمانة».

* « تلذذ بالرب فيعطيك سؤل قلبك ».

* «كف عن الغضب واترك السخط، ولا تغر بفعل الشر لأن عاملى الشر يقطعون، والذين ينظرون الرب هم يرثون الأرض».

وعندما كبر داود فى السن، اعتزل الناس، ووجد أن أجمل لحظات وقته هى تلك التى يقضيها مترنما بالمزامير، وحاول ابن له اسمه «أدونيا» أن يفرض نفسه ملكاً. . إلا أن داود قام فى جمع من الناس خطيباً، وأعلن سليمان ملكاً وخليفة له.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النمل: ١٥].

وأصبح سليمان ملكا على بنى إسرائيل ونبياً لهم. . وأعطاه الله ملكاً واسعاً عريضاً وسخر له الجن والرياح، وعلمه منطق الطير.

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا . . . ﴾ [الأنبياء: ٨١].

﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٢ ، ١٣].

والحديث عن سليمان عليه السلام، يستدعى الحديث عن قصته مع بلقيس ملكة سبأ التى قصها القرآن الكريم، فقد كان يجتمع سليمان بأفراد يمثلون الإنس والجن والطيور. . يسمع شكاياتهم، ويضع الحلول لها، وذات يوم تفقد الهدهد فلم يجده، وأقسم سليمان أن يعاقبه أو يذبحه إذا كان تخلفه بلا عذر مقبول. . وجاء الهدهد ليحكى له قصة مثيرة، فقد ذهب إلى مملكة سبأ، فوجد قوماً يسجدون للشمس من دون الله، وعلى رأسهم ملكة. . وطلب منه سليمان أن يأخذ خطابا إلى هذه الملكة يأمرها وقومها بالإسلام. . وأخذ الخطاب وألقاه من نافذة قصرها. . وقرأت بلقيس الخطاب، وعلمت أنه من سليمان وجمعت قومها.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: ٢٩ - ٣١].

لقد طلبت مشورة شعبها :

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ [النمل: ٣٢].

وكان ردهم أنهم أقوياء، لو أرادت أن تحارب سليمان فسوف يقفون خلفها، ولكنها آثرت السلامة لأنها تعرف ما تسببه الحروب من كوارث وأزمات.

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: ٣٤].

لقد حبذت أن ترسل بهدية إلى سليمان عليه السلام وأرسلت الهدية بالفعل، ولكن سليمان الذى آتاه الله الملك العريض ما كان له أن يقبل مثل هذه الهدية، وقررت هى أن تذهب بنفسها إلى سليمان للمفاوضة.. وعلم سليمان بذلك عن طريق الجن والطيور..

وسأل: من يستطيع أن يحضر عرشها.. واقترح عفريت من الجن أن يأتيه بالعرش قبل أن يقوم سليمان من مقامه، إلا أن رجلا ممن عندهم علم من الكتاب، وكان هذا الرجل وزيره «آصف بن برخياء» قال له:

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴿٤٠﴾﴾[النمل: ٤٠].

وبالفعل وجد سليمان العرش أمامه.

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

علم سليمان أن رحلة بلقيس من اليمن إلى الشام سوف تستغرق ثلاثة شهور، وأمر أن يبنى لها قصراً عظيماً.. عمل به أشهر المثالين والبنائين كما عمل به أيضاً الجن.. ووضع سليمان عرش بلقيس به.. وجاءت بلقيس واستقبلها سليمان استقبالا حافلا.. وهالها ما ترى من أنعم الله على سليمان.. إنه يحضر على بساط تحمله

الرياح. . ويستقبلها وحوله الوحوش والطيور. . وكان القصر أرضه من الزجاج الذى من تحته الماء. . وسارت بلقيس منبهرة بما ترى. . وما كادت تمشى على أرض القصر حتى رفعت ثوبها خشية إن يبتل من الماء الذى يجرى من تحت الزجاج. . وسألها سليمان أن كان هذا عرشها فقالت وهى منبهرة أنه يشبهه. . ويعبر القرآن الكريم عن هذا المشهد الرائع بقوله المعجز وبيانه الفريد:

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل: ٤٢ - ٤٤].

ولم تجد بلقيس وهى ترى كل هذه المعجزات إلا أن تؤمن بما آمن به سليمان عليه السلام بالله جلت قدرته وقالت:

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل: ٤٠].

أسلمت بلقيس لله. . وقيل أن سليمان تزوجها. . وقيل إنها رجعت إلى اليمن لتنشر الإسلام بين قومها. . وهكذا نرى دور المرأة فى حياة داود عليه السلام متمثلا فى مكيال، ودور المرأة فى حياة سليمان متمثلا فى بلقيس.

* * *

زكريا وابنه يحيى
عليهما السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا
وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ
كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا
وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

(الأنبياء : ٨٩ . ٩٠)

صدق الله العظيم

مات سليمان عليه السلام. . وما لبث أن ضعف خلفاؤه بعده. . كما أن بنى إسرائيل نتيجة لأطماعهم وأحقادهم ونفسيتهم المريضة. . ما لبث أن دب الخلاف بينهم من جهة، كما أنهم فى نفس الوقت ابتعدوا عن شريعة موسى عليه السلام. . وعن روحها. . ولم يكن ذلك غريباً عليهم فقد أعلنوا العصيان. . وخرجوا على روح تلك الشريعة فى حياة موسى عليه السلام نفسه. . وكان لابد لهم أن يتعرضوا للهوان والذل. . فأذاقهم الرومان كل صنوف الهوان. .

وعرفوا معنى التشرد على يد «بختنصر» الذى ساقهم أسرى فى بابل. . وهناك فى الأسر حيث التشرد والضياع أخذوا يحرفون التوراة. . وأصبحت التوراة سجلا يحتوى على آمالهم ومطامعهم وأحلامهم التوسعية التى لا تعرف الحدود. . وزاد حقدهم على العالم كله. . فقد هدم بختنصر معابدهم، وأحرق التوراة وحملهم أسرى بعد أن قتل الكثيرَ منهم. . وعندما سقطت بابل تحت ضربات الجنود الفارسية، أمر «قورش» إمبراطور فارس اليهود بأن يعودوا إلى أورشليم. . وعاد اليهود. . ولكن نفسيتهم المريضة لم يكتب لها الشفاء.

وتمضى قافلة الأيام فى ذلك الزمان. . ويأتى زكريا عليه السلام. . نبى من أنبياء الله يتعبد فى المعبد وهو من نسل نبى الله داود

عليه السلام. . وكان قد بلغ من العمر عتيا. ولم ينجب أطفالا وكانت زوجته «الياصبات» عاقراً. . وهى خالة مريم عليها السلام، فأختها هى «حنة» زوجة عمران. . وكان من آمال زكريا عليه السلام أن يرزق ولدا يقر به عيناً. . وتوجه بالدعاء إلى الله أن يحقق هذا الأمل.

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٢: ٦].

واستجاب الله لندائه. . وبشرته الملائكة بيحيى وهو قائم يصلى فى المحراب.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴿٣٩﴾﴾[آل عمران: ٣٩].

وهنا اعتلت الحيرة وجه زكريا:

﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴿٨﴾﴾ [مريم: ٨].

وكان رد الملائكة:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم: ٩].

أهو فى حلم أم حقيقة . .

وسأل الله أن يجعل له آية . . وكان الرد :

﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾ [مريم: ١٠ ، ١١].

وفى تلك البيئة الصالحة النقية نشأ يحيى بن زكريا عليهما السلام. ويطلق عليه اسم يوحنا المعمدان. . وتعمق دراسة الشريعة الموسوية . . وهذه التربية السليمة يعبر عنها القرآن الكريم بقوله :

﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم: ١٢ - ١٥].

وأخذ يحيى الذى ولد قبل عيسى عليه السلام بستة شهور. . وهو الذى عمد عيسى عليه السلام. . يدعو الناس إلى العودة إلى منابع الشريعة السليمة. . ونبذ ما هم فيه من بعد عن الله. . وكانت صورة الحياة فى هذا الزمن صورة قاتمة. فالناس قد بعدوا عن دين الله. . وكهنة اليهود يستغلون الناس. . والحكم الرومانى جاثم فوق ربوع البلاد. . وضاع الحق بين الناس. . وخرج صوت يحيى عليه السلام يدوى فى هذا المجتمع الفاسد للعودة إلى الإيمان. . وإلى اتباع شريعة موسى. . وكان يعيش فى الجبال متعبداً،

وكان غذاؤه من أوراق الشجر . . وطالب يحيى الناس بالتوبة . . وكان يعمدهم . . أى يغسلهم من ذنوبهم كبداية للتوبة فى نهر الأردن . .

وكان يصيح فى الناس باقتراب ملكوت الله . . وأن عليهم أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله حتى يشملهم برحمته . . لأنه لا يبقى للإنسان إلا العمل الصالح . . ولن يشفع لبنى إسرائيل أنهم أحفاد إبراهيم عليه السلام . . ولكن لابد أن يعملوا صالح الأعمال . . وفى هذا يقول لنا إنجيل لوقا مادعا إليه يحيى عليه السلام:

« وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليتعمدوا منه : يا أولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى. فاصنعوا ثماراً تليق بالتوبة. ولا تبتدئوا تقولون فى أنفسكم لنا إبراهيم أبا، لأنى أقول لكم أن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لابراهيم والآن وقد وضعت الفأس على أصل الشجر. فكل شجرة لا تضع ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار »

وانتشرت دعوة يحيى عليه السلام . .

وكان يحكم فلسطين «هيرودس» من قبل الرومان . . وكان متزوجاً من ابنة أحد ملوك العرب واسمه «إرتياس» . . إلا أنه كان ملكا ماجنا يعيش للخمر وبالخمر . . محبا للنزوات . . عاشقاً للهوى . . مغرماً بالنساء . . وعشق هذا الملك زوجة أخيه «فيلبس» وكان اسمها «هيروديا»، وهام حباً فى نفس الوقت بابنة أخيه

«سالومى» أى عشق الأم وابنتها. .وكان ذلك مخالفاً للشريعة الموسوية. . وأعلن يحيى أن ما فعله هيرودس جريمة. . وانتشر بين الناس رأى يحيى فى الملك. .وعز على هيروديا أن يشهر بها وقررت أن تتخلص من يحيى بالقتل بأن توغر صدر الملك ضده. .

ولما كانت تعلم أن هيرودس يهيم حباً بابنتها سالومى فقد طلبت من سالومى أن ترقص أمام الملك رقصاتها الخليعة. .

وأخذت سالومى ترقص وهى تخلع ملابسها الشفافة. . بينما كانت تلعب الخمر برأس الملك. . والنزوة تسيطر عليه. .وأخذت سالومى تتمنع عليه. . وأخيراً طلبت منه أن يأتى لها برأس يحيى. . وجاءوا بالرأس فى طبق من الذهب. .

وكان يحيى فى السجن. . فقد سجنه الملك قبل ذلك ثم أمر بقتله بعد إغراء سالومى. . وفى هذا يقول إنجيل مرقص:

«لأن هيرودس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه فى السجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه إذ كان قد تزوج بها لأن يوحنا كان يقول لهيرودس لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك فحنقت هيرودياً عليه وأرادت أن تقتله ولم تقدر».

وسمع الملك بعد أن تمت هذه الجريمة نداء من يوحنا المعمدان:

« لا يحل لك أن تأخذ امرأة أخيك».

وقد حدث عقب هذه الجريمة أن ساد الوجوم وجوه الناس. .

وأوشكت أن تقوم فتنة كبرى . . وفى هذا الجو أرسلت «هيروديا» بعض الجنود فقتلوا زكريا عليه السلام فى المعبد أيضاً !

ويحدثنا التاريخ فيقول أن «ارتياس» الملك العربى قد غضب لما حدث لابنته وزواج هيرودس عليها فهاجمه بجنود من العرب . . وهزمهم وفر هيرودس وهيروديا إلى جنوب فرنسا . . أما سالومى فقد اختلفت حولها الآراء . . بين القول بأنها انتحرت والقول بأنها أسرت . . والقول بأنها أصيبت بالجنون . . المهم أن الله عاقب الذين تسببوا فى قتل يحيى وزكريا . . ولعذاب الآخرة أشد وأنكى .

وكانت دعوة عيسى عليه السلام امتداداً لدعوة يحيى عليه السلام .

وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم: ١٢-١٥].

لقد بشر يحيى بعيسى عليه السلام وكان يقول : «أنا أعمدكم بماء التوبة ، ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى ، الذى لست أهلا أن أحمل حذاءه ، هو سيعمدكم ، بالروح القدس ونار» [إنجيل متى] .

* * *

عيسى عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ
يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى
ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ
الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ
وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

(آل عمران:٤٥ ، ٤٦)

صدق الله العظيم

كانت دعوة يحيى تمهيداً لدعوة المسيح عيسى بن مريم، وهو ابن خالة يحيى. . ولقد رأى زكريا الذى كفل مريم عليها السلام، كيف أنه كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا. . وشجعه هذا أن يطلب من الله رغم أنه بلغ من العمر عتيا أن يهبه من يملأ عليه الحياة. . واستجاب الله لدعائه وأنجب يحيى رغم أن أمه كانت عاقرا!

وإذا بحثنا عن المرأة فى حياة السيد المسيح، فسوف نجد أن هذه المرأة هى أمه البتول مريم.

كانت تقية نقية. . فقد اصطفاها الله على نساء العالمين، وكانت اسم أمها حنة زوجة عمران. . أرادت يوماً أن تزور أختها الياصبات زوجة سيدنا زكريا الذى كان يعمل رئيساً للكهنة فى الهيكل بأورشليم. . وهناك وجدت أطفالا فى المعبد يرددون التراتيل. . يومها تمنت من الله أن يرزقها طفلا تهبه للمعبد. . وشاءت إرادة الله أن تستجيب لدعائها، وما كادت تشعر بالحمل حتى وهبت ما فى بطنها محررا لله.

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥].

ومرت شهور الحمل، ووضعت طفلة جميلة اسمتها مريم تيمنا بمريم أخت موسى وهارون عليهما السلام. . وتذكرت أنها قد نذرتها لله.

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) ﴾ [آل عمران: ٣٦].

وشاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يموت والدها عمران وهى ما تزال طفلة فى عمر الزهور.

وتوجهت بها أمها إلى المعبد وهى ما تزال فى سن صغيرة وفاء لنذرها، وكفلها زكريا لأن زوجته خالتها. . وعاشت طفولتها متنقلة بين المعبد وبين منزل خالتها الياصبات زوجة زكريا عليه السلام. . وقد أيقن زكريا أن مريم سيكون لها شأن عظيم لأنه كلما دخل عليها المحراب وجد أن الله قد ساق لها رزقاً.

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وتجاوزت مريم مرحلة الطفولة ودخلت مرحلة الشباب. . وكانت لابد أن تعود للناصرة حيث تعيش أمها. . فقد أصبحت مؤهلة للزواج.

لطالما سمعت بالمسيح المنتظر.. ولطالما تمنت من أعماق نفسها أن تكون هى أم المسيح ولكن كيف يتحقق هذا الأمل.. إنه أمل يداعب خيالها..

وعندما رجعت إلى منزل أمها فى الناصرة اتخذت مكاناً فيه لعبادة الله.. وكانت الملائكة تحضر لها الغذاء كما كانت العادة وهى فى المعبد.. وفى الناصرة تقدم لخطبتها « يوسف النجار ».. وكان يعمل نجاراً. وكانت قد قاربت العشرين من العمر.. بينما كان يوسف النجار يكبرها فى السن بالشىء الكثير.. وبينما كانت العذراء تتعبد إذا بها تفاجأ بإنسان وسيم.. ولم يكن هذا الشخص الوسيم إلا جبريل عليه السلام.. فزعت منه أول الأمر حتى عرفت حقيقة أمره:

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ [مريم: ١٧ ، ١٨].

وعرفت أنه رسول من قبل الله سبحانه وتعالى، وأن الله سوف يهبها عيسى عليه السلام.. لقد فزعت أول الأمر.. كيف تحمل بلا زواج.. ولكنها أيقنت أنها إرادة الله.. ولا راد لإرادته.. وأنها سوف تكون أما لنبى عظيم وهو المسيح عيسى بن مريم. ذلك الذى يصبح وجيهاً فى الدنيا والآخرة.. وتكون رسالته للناس رسالة المحبة والسلام .. وأن تسود دعوته الأرض التى طالما خضبتها دماء الضحايا.. وسفك فوق ترابها دم البشر على مر العصور.. وسادتها الأحقاد والأهواء والشهوات.. عرفت أنه قد آن الأوان لتنشر دعوة

الحب وترتفع أغصان الزيتون.. ويحب الناس بعضهم بعضاً.. ويعودوا إلى تطبيق شريعة موسى عليه السلام..ويسود الأمن والطمأنينة بين الناس..لقد شعرت مريم بالسعادة تملأ جوانب نفسها وهى تستمع إلى كلمات الملاك الكريم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

ومضت شهور.. وعلم يوسف النجار أن خطيبته قد حملت فاعتصره الألم، إلا أنه سرعان ما ذهب عنه الحزن، فقد رأى فى منامه أن مريم حامل بالسيد المسيح..وأنه رسول الله، وأخذها إلى أورشليم لتقضى أياماً عند خالتها، وكانت خالتها الياصبات حاملا بيحيى..وقد رأت فى منامها أن من فى بطنها يسجد لمن فى بطن مريم..أى أن يحيى سوف يكون مصدقاً لرسالة عيسى عليه السلام..

وذهبت مريم ويوسف النجار إلى «بيت لحم».. وفى الطريق أحست بأعراض الولادة.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٢، ٢٣].

لقد خشيت مريم من حديث الناس. . وما سوف يفترون به عليها . . إلا أن كلمات عيسى عليه السلام من تحتها غرست فى أعماقها السكينة.

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٤، ٢٦].

وعندما عادت إلى الناصرة وجدت ما توقعته. . لقد شاع خبر ولادتها بين الناس. . وبكل إيمان المؤمنين، أشارت إليه. . إلى عيسى الطفل الوليد ليحدثهم عن معجزة السماء. . لقد قالوا لها:

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم:٢٨].

وعندما أشارت إلى الطفل قالوا :

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم:٢٩].

لقد شاهد الجميع عجبا. . رأوا المعجزة !. . سمعوا صوت الصغير يبرىء أمه من افتراءات المفترين. . ويعلن فى نفس الوقت عن معجزة الله الكبرى. . وكيف سيكون ذلك إرهاصاً بميلاد مجتمع ييمم وجهه شطر السماء بعد أن أفسد اليهود وأحبارهم الحياة،

وملؤوها كذباً وخداعاً، كما ملأ الرومان الأرض ظلما وجورا وطغياناً. . لقد دوى صوت المسيح فى آذان هؤلاء المنكرين.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠ -٣٣].

لم يكن أمام الناس إلا الإيمان بطهارة مريم العذراء. .

يمضى عام. . وتموت أم السيدة العذراء!

وبعد عامين من هذا الحادث يأمر ملك اليهود ـ بناء على نبوءة أحد العرافين بأن ولدا ولد سوف يكون ملكاً على اليهود ـ بقتل كل الأطفال فى عمر عيسى عليه السلام. . وأمام هذا الخطر يأخذ يوسف النجار مريم وابنها المسيح ويهرب معهما إلى مصر حيث يعيشان فيها ثلاث سنوات. . وقد عمل يوسف بالنجارة أثناء إقامته فى مصر. . وأصبحت الأماكن التى مر بها السيد المسيح وأمه مزارات لإخواننا المسيحيين، حيث أقيمت فيها الكنائس. ثم رجع يوسف النجار ومعه مريم وابنها إلى الناصرة حيث أخذ يعمل فى مهنته كنجار. . وعندما توفى يوسف النجار عمل المسيح فى نفس المهنة. . إلى أن بلغ سن الثلاثين. .

وكان يحيى بن زكريا أو يوحنا المعمدان. . يصيح فى البرية وينذر الناس أن يعودوا إلى شريعة موسى، ولكن هذا النبى قتل. .

ذهب ضحية بغى وابنتها . . وحاكم مستهتر عابث . . وحان الوقت ليبشر المسيح برسالة الله . . كان عليه أن يظهر للناس ما يفعله الكهنة والفريسيون . . وكشف باطل اليهود . .

وكأى دعوة لا يمكن أن تقابل بسهولة ويسر . .

وكيف يسكت اليهود وهم يرون المسيح يسحب البساط من تحت أقدامهم . . حاولوا . . وحاولوا أن يثنوه عن عزمه ولكن بلا جدوى . . كما أن المعجزات التى أعطاها له الله . . بإحياء الموتى، وشفاء المرضى . . جعلتهم عاجزين عن الوقوف أمام دعوته التى تريد بالناس العودة إلى شريعة الله . . انتشرت دعوة عيسى . . وأصبح له تلاميذ وحواريون . . وأخذت كلماته تجد طريقها إلى القلوب المؤمنة ويرتجف منها المتاجرون بالدين . . كان المسيح يقول:

* « ويل لكم أيها الكهنة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة، تظهر من الخارج جميلة، وهى من الداخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة ».

* « ويل لكم أيها الكهنة والفريسيون المراؤون لأنكم تبنون قبور الأنبياء، وتزينون مدافن الصديقين، وتقولون لوكنا فى أيام آبائنا لما شاركنا فى دم الأنبياء ».

* « وأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء فاملأوا أنتم مكيال آبائكم ».

* « أيتها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة، فمنهم تقتلون وتصلبون، ومنهم تجلدون فى مجامعكم وتطردون من مدينة إلى مدينة، لكى يأتى عليكم دم زكى سفك على الأرض. من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح ».

* «الحق أقول لكم: إن هذا كله يأتى على هذا الجبل، يا أورشليم يا أورشليم. يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها».

* « كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة أفراخها تحت جناحيها ولم تريدوا ».

* «ها هو ذا بيتكم يترك خراباً لأنى أقول لكم : أنكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا : مبارك الآتى باسم الرب».

وكان لابد أن تنتشر دعوة المسيح. لأنها دعوة الحب والإخاء. وأن يعود الناس إلى رحيق السماء. . إلى شريعة موسى وصحف إبراهيم. . إنه يعيد للدين إشراقه. . وجلاله. .

فالله ليس رب بنى إسرائيل وحدهم ولكن الله رب الجميع. . رب الناس جميعاً. . خالق الأرض والسماوات وما بينهما وما تحت الثرى. . الله للجميع، والدين ليس وقفاً على بنى إسرائيل يزرون التوراة فى أيام النفى فى بابل كما يشاءون، ويفترون على الله وعلى الحقيقة كما تسول لهم نفوسهم المريضة. . التى أضناها لهيب

الأسر . . وذل الهزيمة . . فالحقيقة لا تتجزأ . . ولقد سمع الناس كلمات عيسى وعرفوا أنها الكلمات الصادقة النابعة من أعمق المشاعر .

* « طوبى للحزانى والمساكين والجياع » .

إن الحزانى والمساكين والجياع ليسوا على هامش الحياة . . ليسوا من جنس يختلف عن جنس الأغنياء ومحتكرى الإدعاءات . . إنهم بشر يستظلون بسماء الله ويشمون هواء الله . . والله لا يضيعهم . . إن لهم حقوقا وعليهم واجبات . وإن رحمة الله كفيلة بأن تظل الجميع .

لقد ضاقت الحياة بنفاق الكتبة والفريسيين . هؤلاء الذين رأوا حكامهم يفعلون مالا يرضاه عدل السماء ويصمتون تملقا ونفاقا . . ويرون دم يحيى بن زكريا يهدر فلا يرتفع لهم صوت بالاستنكار .

وقد ذهب يوحنا ضحية امرأة داعرة . . لأنه قال كلمة الحق ، قال إن الحاكم خارج على ناموس موسى وأن زواجه من هيروديا من قبيل الزنا . . كذلك قتل والده زكريا ولم يرتفع صوت احتجاج على كل هذه الشرور ! .

فما بال اليهود اليوم يقفون ضد دعوة المسيح . . وهو الذى قام لينشر نور العدالة والسلام !

لقد عبر القرآن الكريم تعبيراً معجزاً فى كلمات عن ذلك بقوله :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا

تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

[البقرة: ٨٧].

لقد كان صوت المسيح يجلجل، فيهز أعماق النفوس وهو يدعو إلى الحب.

«سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم، ويطردونكم، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين».

وجد الناس فى دعوة عيسى إعادة لإنسانيتهم . . فإنهم لم يأتوا إلى الحياة ليعيشوا تحت وطأة ظلم الحكام . . ويكونوا تحت رحمة المتاجرين بالدين . . إن كلمات المسيح تلقى فى نفوسهم الأمن والأمان.

* «أنتم ملح الأرض ولكن إن فسد الملح فبماذا يملح؟».

* «أنتم نور العالم».

* «لا يمكن أن تختفى مدينة موضوعة على جبل، ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت المكيال بل على المنارة، فيضىء لجميع الذين فى البيت، فليضىء نوركم هكذا أمام الناس لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السماوات».

ووجدت الدعوة آذانا صاغية. وفى نفس الوقت وجدت من يقف لها بالمرصاد. . وخاصة من الكتبة والفريسيين المرائين. . وهل يمكن أن يسكتوا عليه وهو يعريهم أمام الناس ويعلن لهم صراحة قوله:

* « ويل لكم أيها الكتبة والفرنسيون المراءون، لأنكم تختلقون ملكوت السماوات قدام الناس، فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون ».

* «ويل لكم أيها الكتبة والفرنسيون المراءون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل، ولعله تطيلون صلواتكم لذلك تأخذكم دينونة أعظم».

وحاولوا أن يوقعوا بينه وبين السلطة الزمنية. فأرسلوا له من يسأله :

ـ يا معلم، نعلم إنك صادق، وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالى بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس فقل لنا :

أيجوز أن نعطى الجزية لقيصر أم لا ؟

وعرف عيسى عليه السلام بمكيدتهم فقال لهم :

ـ إعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. .

وفكروا فى مؤامرة أخرى، عندما ساقوا خاطئة إليه وقالوا له :

ـ أيها المعلم هذه امرأة أخذت وهى تزنى وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية فماذا تقول أنت ؟

إنهم هنا يريدونه أن يصدر حكماً. . وليس له حق الولاية وفى الوقت نفسه ما جاء هو لينقص من شريعة موسى عليه السلام. . وبكل إيمان الأنبياء قال لهم :

ـ من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرمها بحجر !

وأخذت دعوة عيسى عليه السلام تنتشر بين الناس. . وأخذ هو يوضح للناس طريق الصلاح. . وطريق الحياة الكريمة. . بالحب يشعر الإنسان بمعنى الحياة. . وبالبعد عن الزنا يحترم الإنسان إنسانيته. . والبعد عن قتل النفس التى حرم الله قتلها يسود المجتمع أريج المحبة وترتفع أغصان الزيتون.

ودبر اليهود المؤامرات ضده، وأوغروا صدر الوالى من أن عيسى يدعى أنه ملك اليهود. . وذهب إليه الوالى «بيلاطس» وسأله إن كان ملك اليهود، وأجابه عيسى عليه السلام بقوله :

* « لو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدامى يجاهدون لكى لا أسلم لليهود ».

وخشى «بيلاطس» التورط فى هذه المؤامرة، إلا أن اليهود أرادوا محاكمة السيد المسيح أمام مجمعهم المقدس. ولعب «يهوذا الاسخريوطى» دوراً حقيراً فى هذه المؤامرة نظير مبلغ من المال. . وأصدر المجمع حكماً بإعدام السيد المسيح وطالبوا «بيلاطس» بتنفيذ الحكم، وسيق عيسى عليه السلام إلى ساحة الإعدام مع الذين

سيعدمون..وأظلمت الدنيا..واكفهر الجو..وساد الناس وجوم وخوف غريب..وخيل إليهم أنهم قتلوه وصلبوه ولكن الله نجاه منهم.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء:١٥٧ ، ١٥٨].

ولقد ظلت السيدة مريم العذراء بجانب ابنها..تشاهده وهو يدعو الله..وتشاهد ما يدبروه له اليهود..وأخذت تشد أزره..وبعد ذلك عاشت حزينة لفراق وحيدها الذى لم يتجاوز فى حياته ثلاثة وثلاثين عاما..وماتت بعده بست سنوات..والقرآن الكريم يكرمها بهذه الشهادة العظيمة بأنها امرأة صالحة.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١١ ، ١٢].

* * *

مريم المجدلية

لقد كانت دعوة نبى الله عيسى عليه السلام.. هى دعوة للحب.. دعوة أن يعود الناس إلى الشريعة السمحة التى نادى بها موسى عليه السلام.. وأن يعيد للناس يقينهم.. وأن يبعدهم عن الزيف والضلالة التى أغرقت المجتمع بسمومها.. وكانت صيحته:

* «طوبى للحزانى والمساكين والجياع».

هذه الصيحة نفذت إلى العقول والقلوب.. ووجد الحزانى والمساكين والجياع أن الله لا ينسى أحداً.. وأنهم ليسوا هباءة هائمة على أمواج الحياة.. إن عليهم أن يؤمنوا بدعوة التوحيد الخالص.. بعيداً عما دس فى شريعة موسى من افتراءات أحبار اليهود.. وحتى يستطيع عيسى عليه السلام أن ينشر دعوته.. أيده سبحانه وتعالى بالمعجزات.. حتى تؤمن القلوب المتحجرة التى أعمتها المصالح والأهواء عن رؤية أنوار اليقين:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ

﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: ١١٠].

وانتشرت دعوة المسيح.. تبشر بالحب والسلام وسط المساكين والحيارى والتائهين.

* «طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله».

* «طوبى لصانعى السلام، لأنهم أبناء الله يدعون».

* «طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السماوات».

وما أكثر ما نصح المسيح وأتباعه يتزايدون يوماً بعد يوم.. رغم حقد أحبار اليهود.

إن كلماته تنفذ إلى أعماق النفس فتضيئها.. وتزيدها خشية ورهبة من عذاب الله، وتزيدهم أملاً فى ملكوت السماوات..

استمعوا إلى كلماته:

* «سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوك وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعينكم، أحسنوا إلى مبغضكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين!».

دعوة للتسامح والمحبة بلا حدود.. ما كان يضيق بها إلا أصحاب النزوات والطغيان والأهواء.. فانتشرت بين الناس.. وفى هذا الجو.. كانت هناك قصة تروى.. تروى لما فيها من عظة وعبرة!

كانت هناك امرأة اسمها مريم المجدلية ذات جمال رائع.. وكانت ثرية.. وكان مبعث ثرائها احترافها البغاء.. يتكالب على بيتها الأثرياء وذو الجاه.. من الأمراء.. ولكن قلبها كان يهوى شابًا على جانب كبير من الوسامة والجاه والثراء اسمه «توما».. كانت تحبه من أعماق نفسها.. وأسعد لحظات حياتها هى تلك اللحظات التى تسعد بلقائه.. وكان هو الآخر يحبها من أعماق نفسه.. و..فجأة اختفى توما.. لم يعد يتردد عليها.. وأخذت تسأل عنه.. أين ذهب؟.. أين اختفى؟

وعلمت أنه اعتنق المسيحية.. وأنه آمن بما جاء به السيد المسيح من مبادىء وقيم ومثل عليا.. فهجر دنيا الدعارة والضياع وشعر بأن الإيمان يرفعه عن الدنس الذى كان يعيش فيه، ويشعر بجمال روحى ليس له نظير.

هنا قررت مريم المجدلية أن تذهب وتبحث عن الأمير توما فى أى مكان.. وعلمت أنه يعيش لله وبالله.. فلم يعتن بما يملك من أموال ومتاع الحياة.. بل يسير حيث يسير المسيح.. يشاهده ويشاهد معجزاته.. ولم تكن مريم المجدلية تعنيها دعوة السيد المسيح.. كل الذى يهمها أن يعود إليها توما.. وعلمت أنه فى حلقة من حلقات السيد المسيح حيث يلقى بمواعظه..

فاتجهت إليه.. فإذا بها ترى السيد المسيح.. وحوله الحواريون وهناك أيضاً توما.. ولكن الذى هزها السيد المسيح نفسه.. بجلاله

ووقاره.. وكلماته التى تصل إلى أعمق أعماق النفس.. فشعرت بالرهبة والخشوع.

وعندما التقت بتوما.. وجدته إنسانًا آخر.. إنسان عزف عن حياة اللهو.. وودع الحياة الماجنة التى كان يحياها إلى الأبد.. وعرفت من كلمات السيد المسيح أن الله يعفو عن المسيء.. ويحب التوبة ويقبلها.. فرجعت قافلة إلى قصرها الضخم.. وعلامات استفهام كثيرة تدور فى ذهنها.. وتتذكر قصتها مع الأيام.. لقد أصبحت من أغنى الأغنياء.. وهى تتمتع بجمال فائق أخاذ.. ولكن هل يمكن أن يدوم المال..؟

وهل يمكن أن يدوم الجمال؟

وماذا كسبت من هذه الحياة التى تعيشها وسوف ترحل عنها.. ولن ينفعها المال، ولن يبقيها الجمال خالدة على وجه الحياة؟

لقد عادت إلى نفسها أخيراً.. وشعرت بالندم على حياتها تلك اللاهية.. وقررت أن تذهب إلى السيد المسيح.. تعلن توبتها ورجوعها إلى الحق.. لقد أضاء الإيمان قلبها.. وعرفت أن السيد المسيح فى بيت أحد الحواريين، فذهبت إليه وارتمت تحت أقدامه تقبلها.. والدموع تملأ عينيها.. وعدت المسيح أن توبتها توبة صادقة.. فبشرها بقبول الله هذه التوبة.. ومن يومها حرصت كل الحرص أن تلازم السيد المسيح.. وأن تدعو النساء إلى الإيمان بدعوته.

وعاشت مثلاً صالحاً للمرأة التى تعرف طريقها إلى الله بإخلاص بعد التوبة النصوح.

ومرت الأيام.. وتعرض السيد المسيح للمؤامرة الدنيئة التى دبرها له أحبار اليهود.. وارتفع إلى السماء.. وبكته مريم المجدلية أحر البكاء وواست والدته السيدة مريم العذراء ولازمتها فى المحنة النفسية التى عاشتها.. ثم أخذت تعيش بقية حياتها زاهدة عابدة متقشفة.. يملأ الإيمان كيانها.. ويرسم لها خطاها فى الحياة.. إلى أن انتقلت إلى رحاب الله مرضياً عنها.

* * *

بعد عيسى عليه السلام . . وبعد فترة من رسالته التى أراد بها أن يعيد للشريعة الموسوية أصولها . . وجاء بالإنجيل ليتمسك به المؤمنون . . إلا أن الناس سرعان ما عادوا إلى الضلال . . الإنجيل تحول إلى أناجيل . . فقد غيروا فيه وبدلوا . . وظهرت عشرات الأناجيل . . وأقرت الكنيسة أربعة أناجيل فقط هى بولس، ومتى ويوحنا، ومرقص، وكان هناك إنجيل برنابا الذى أمر البابا جلاسيوس بإلغائه . . وقد كان هذا الإنجيل الأخير الذى تم إلغاؤه قبل ميلاد النبى عليه الصلاة والسلام بطريقة مباشرة كما ينفى ألوهية المسيح . . ومن أجل هذا قررت الكنيسة منع تداوله .

إن المسيح قد تنبأ بأن النبوة ستخرج من دائرة بنى إسرائيل إلى أمه أقدر على حفظها ونشر دعوة الله فى مختلف أنحاء الدنيا فهو يقول : «الحجر الذى رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية، من قبل الرب، كان هذا وهو عجيب فى أعيننا، لذلك أقول أن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل على إثماره» .

ولكن الناس أصموا آذانهم عن تلك النبوءة، وسولت لهم نفوسهم ما يرضى نزواتهم . . وحرفوا الكلم عن مواضعه . . وألهوا عيسى . . ولم يقل عيسى قط عن نفسه أنه ابن الله أو إنه إله . . ولم يقل شيئاً عن الثالوث (الأب . . والابن . . وروح القدس) لم يقل أى

شيء من هذا.. ومن هنا انحرفت الدعوة.. وحاد الناس عن دعوة عيسى عليه السلام..

وقد عطل جلاسيوس إنجيل برنابا.. وهو أحد حواريي الرسول فى عام ٤٩٢.. وهذا التاريخ كان قبل ميلاد النبى عليه الصلاة والسلام بتسع وسبعين عاما.. هذا الإنجيل يقول على لسان عيسى عليه السلام: «فلما كان الناس قد دعونى الله، وابن الله، على أنى كنت بريئاً فى العالم، أراد الله أن يهزأ الناس بى فى هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أننى أنا الذى مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بى فى يوم الدينونة، وسيبقى هذا إلى أن يأتى محمد رسول الله، الذى متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله».

وهذا يعنى أن المسيح ينفى عن نفسه الألوهية، وينفى عن نفسه الصلب.. ويبشر بدعوة محمد عليه الصلاة والسلام. وفى إنجيل برنابا نقرأ أيضاً: «إنى أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكن على الأرض إنى برىء من كل ما قال الناس عنى من أنى أعظم من بشر، لأنى بشر مولود من امرأة، وعرضه لحكم الله. أعيش كسائر البشر عرضه للشقاء العام».

والقرآن الكريم ينفى عن عيسى عليه السلام أنه ادعى أنه إله أو ابن إله..

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ

إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨].

ولكن أى اجتراء هذا على التوحيد.. ما جاءت رسالات الله إلى الأرض منذ آدم إلى محمد عليه الصلاة والسلام إلا بالتوحيد.. ما من نبى تجاسر على الله وادعى شيئاً من هذا الذى افتراه الناس بعد عيسى عليه السلام.

المنطق يرفض أن يكون الله ثالث ثلاثة.. والعقل يرفض هذه الخرافات، أو هذا التخيل السخيف.

إن عيسى وجه أبصار الناس وعقولهم إلى الحقيقة الكبرى إلى الإيمان المطلق بالله وبرسله.. لم يقل لأحد أن يعبده.. ولا أمر بذلك.. ولكن يبدو أن حب الناس للسيد المسيح جعلهم يتناسون أنه نبى بشر فألهوه.. نسوا منطق العقل وانساقوا وراء العاطفة.. ولكنهم بذلك ارتكبوا إثماً كبيراً.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة: ٧٣-٧٥].

المهم أن العالم سادته جاهلية غريبة. . فبعد أن انتشرت المسيحية وغزت الدولة الرومانية نفسها مما اضطر «دقلديانوس» أن يؤمن بالمسيحية، ويعلنها ديناً رسمياً للدولة بعد أن أعدم «نيرون» المسيحيين بالجملة، وقتل بولس مع من قتل من المسيحيين ثم جاء بعد فترة من الزمن الامبراطور «قسطنطين» الذى وجد أن المسيحية قد انتشرت فى كل أنحاء الامبراطورية الرومانية وأعلن مبدأ التسامح الدينى. .

وكانت المسيحية قد دخلت مصر على يد القديس «مرقص» وهو الذى أسس الكرازة المرقسية. . وكانت مصر قد شهدت الأهوال عندما اضطهد «دقلديانوس» المسيحيين المصريين. . وكثرة ضحاياه من الشهداء. . وسمى هذا العصر فى مصر عصر الشهداء.

والغريب أنه ظهر قسيس فى مصر وهو القس «أريوس» الذى قال إن عيسى نبى، وليس إلها، وثارت عليه الكنائس واستعدوا عليه سلطة الدولة، وعقد مؤتمر «نيقيه» دعا إليه الإمبراطور قسطنطين لمناقشة هذه الدعوة الجريئة التى يدعو إليها «أريوس» ولم يدع أريوس بشىء إلا بعودة الإيمان ببشرية عيسى، وتصحيح العقيدة. . والرجوع

إلى المنبع الأول.. إلى الحق.. وأخذ قسيس مصرى آخر وهو «أثناسيوس» وكان خطيباً ماهراً يسفه أفكار أريوس.. ولكنه لم يستند إلى الإنجيل.. ولا إلى المنطق.. ولكنه خاطب العواطف.. وما أسهل التأثير على العواطف.. وإذا بالمجمع ينتهى إلى قرار.. والقرار هو أن طبيعة السيد المسيح طبيعة «إلهية بشرية!»

ولكن كيف يكون المسيح إلهاً وبشراً.. وفسرها «أثناسيوس» تفسيراً غريباً.. إن طبيعته الإلهية ترجع إلى طبيعة أبيه فى السماء، وطبيعته البشرية ترجع إلى طبيعة أمه مريم وهى البشر!!

وهكذا أصبح عيسى فى رأيهم يحمل طبيعة الإله وطبيعة البشر!!

وجاء رجل مصرى آخر بعد فترة من الزمن وهو القسيس «لوقيوس» الذى حاول أن يعيد الناس إلى الصواب. وأخذ ينادى بما نادى به أريوس بأن المسيح بشر.. وخشى الإمبراطور الرومانى أن يحدث بلبلة بين المسيحيين، وتضطرب الفتن بين الطوائف المسيحية، فأعلن «الأورثوذكسية» عقيدة الامبراطورية الرومانية الشرقية كلها.. وعاد الناس للاعتقاد بأن المسيح له طبيعة إلهية وأخرى بشرية!

وبعد فترة قام «نسطور» رئيس الكنيسة البيزنطية ينادى من جديد ببشرية المسيح، وثارت عليه كنيسة الاسكندرية وعقد مجمع مقدس فى مدينة أفسوس (سنة ٤٣١ميلادية) وانتهى بطرد نسطور من الكنيسة وتجريده من مناصبه الدينية!

لقد شغل الجدل الدينى العالم.. وعاش العالم فى فوضى عقائدية بعد أن حرفوا الإنجيل والتوراة.. كما أن العالم عانى فى نفس الوقت من الطغيان السياسى.. فروما تسيطر على معظم أنحاء العالم المعروف.. وتحكم الشعوب بقوة النار والحديد.. وهناك دولة الفرس التى احتلت هى الأخرى طريقها فعبدت النار من دون الله.. وحكمت مناطق من العالم واستعمرته وكوت أهله بالظلم والطغيان..

بينما انعزلت الجزيرة العربية بعقائدها الدينية بعد أن نست دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.. عبدوا الأصنام والتماثيل، واتخذوا أربابا من دون الله.. وعبد البعض منهم النجوم، وكانت هناك قلة من المسيحيين، وبعض اليهود فى يثرب، وقليل من الحنفاء الذين عبدوا الله على دين الخليل.. ولولا جدب الصحراء لخضعت هذه البلاد لنفوذ وسيطرة إحدى الدولتين الكبيرتين دولة الفرس أو دولة الروم.. فطبيعة الصحراء القاسية، وقلة الخيرات فى هذه الأراضى التى لا زرع فيها ولا نبات.. جعلتها بمنأى عن أطماع الفرس أو الرومان.. فما هى الفائدة التى تعود عليهما من استعمار أرض ليس فيها من الثروات ما يكفى ليسيل لها لعاب المستعمرين.. وأهلها لا يعرفون إلا الرعى، والتجارة.. والذهاب للتجارة فى رحلة إلى اليمين، وأخرى إلى الشام.

لقد عاشت هذه البلاد شبه مستقلة عن القوتين الكبيرتين فى العالم فى ذلك الزمن، ولكنها فى نفس الوقت عاشت تحت وطأة

تقاليد سخيفة لا معنى لها فهم يقتلون البنات خوفاً من الفقر، ويتعاملون بالربا، ويعتدى القوى على الضعيف، وترتفع الرايات الحمر على بعض البيوت وهى ما يسمى حديثاً باسم «بيوت الدعارة» حيث تمارس تجارة الجنس.. وانتشرت الخمور، واستبد القوى بالضعيف.. وليس معنى هذا أن مجتمع الجزيرة العربية كان مجتمعاً لا يعرف إلا هذه الصور البذيئة من صور الحياة.. فقد كانت هناك النخوة العربية.. والشجاعة.. وكان هناك أربعة أشهر حرم يحرم فيها القتال، ولكن الحياة بصورة عامة كانت قائمة.. فالفرق شاسع بين الذين يملكون والذين لا يملكون.. والرق سمة من سمات هذا المجتمع ولا حقوق لهؤلاء الأرقاء.

وباختصار فقد عاش العالم فى جاهلية.. ابتعدوا عن ديانات الله.. حرفوا الكلم عن مواضعه.. عبدوا الأوثان.. حقوق الإنسان ضاعت وسط تقاليد وعادات تهرأت وشاخت.. أصبحت صورة كئيبة مظلمة وكأن البشرية تعيش تحت وطأة ليل كثيف الظلام.. وكان لابد للصورة أن تتغير كلها.. لابد من خريطة جديدة للعالم.. تختفى منها كل ما يعوق الإنسان عن الانطلاق نحو حياة أكثر سعادة وأملا وإشراقا.. ويأتى عصر جديد.. يعرف فيه الإنسان ربه وخالقه.. وواهبه الرزق والحياة.. يعرف الإنسان فيه أن لهذا الكون إلهاً واحداً أحداً فرداً صمداً لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

يعرف الإنسان فيه الطريق الذى يؤدى إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، والطريق الذى يؤدى إلى جهنم وبئس القرار.

يعرف الإنسان فيه أن له حقوقا وأن عليه واجبات.. تجاه ربه، وتجاه نفسه وتجاه مجتمعه.. وأن له أيضاً حقوقا لابد أن توفرها له تعاليم تلك الرسالة السمحة التى تربط بين الأرض والسماء، وتسمو بالإنسان وترتفع به من الأوحال إلى سمو عالم روحى مثالى عظيم.

كان لابد لوجه المجتمع القديم الذى شاخ وتهرأ أن يتغير ليحل محله قيم جديدة.. وعلاقات إنسانية أكثر نبلاً.. ويعيد للناس جلال الاتصال الروحى بالله.. وكانت دعوة محمد عليه الصلاة والسلام.. وكان الإسلام..

* * *

محمد (صلى الله عليه وسلم)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ (الفتح:٢٩)

صدق الله العظيم

لقد جذبنى فى فترة من فترات حياتى الاطلاع على سيرة عظماء الرجال فى مختلف الأديان والجنسيات، كنت أحاول أن أعرف الكثير عن حياة هؤلاء الذين لعبوا أدواراً تاريخية عظيمة فى تاريخ البشرية . . سواء فى الفكر أو الفلسفة . . فى السياسة أو الاجتماع . . سواء كانوا قادة فى الفن أو قادة فى المعارك والحروب . .

وكان هذا الإعجاب يدعونى إلى التفكير . . كيف استطاع فرد من الأفراد أن يلوى عنق التاريخ ليتخذ مساراً جديداً . . كيف يستطيع فرد واحد أن يأتى بمذهب جديد أو فكر جديد فإذا بالألوف أو الملايين من البشر يعتقدون هذا الفكر ويغيرون من نظرتهم للأمور والحياة . .

وقفت عند آراء كثير من الفلاسفة، وكان يبهرنى هذا الوضوح الفكرى الذى اهتدوا من خلاله إلى نظرياتهم أو آرائهم فى الحياة، وسواء أكنت موافقاً عليها أو لك تحفظات حولها فإن الإنسان يقف بالفعل متعجباً من تلك القدرة التى أودعها الله بعض العقول البشرية .

وكثيراً ما توقفت عند القادة العسكريين الذين أداروا أعنف المعارك فى التاريخ، واستطاعوا أن يكسبوا لشعوبهم المعارك تلو المعارك . . ويرفعون أوطانهم إلى مستوى عالمى مرموق، ومن خلالهم

يمكنون دولتهم من توسيع مساحتها الجغرافية ويفرضون وجودهم على شعوب أخرى.

وقرأت لبعض الساسة الذين استطاعوا بدهائهم السياسى أن يحققوا لأوطانهم أمجاداً سياسية تثير الدهشة..

كما استوقفتنى حياة بعض كبار الأدباء التى كانت كتاباتهم بمثابة المصباح الأمامى الذى أضاء للبشرية طريقها.. فقد كانت هذه الكفايات العملاقة علامة طريق للانطلاق نحو فهم أكثر واقعية للحياة..

قرأت الفلسفة الإغريقية، والفلسفات الأوربية فى العصور الوسطى والعصر الحديث، وقرأت الكثير من الآداب العالمية.. وحاولت أن أتخيل صوراً لهؤلاء العباقرة الذين عاشوا على دنيانا ثم رحلوا بعد أن تركوا تراثا عظيما فى الفكر والأدب ودنيا الناس.. قرأت كل ذلك فى فترة من حياتى.. وعلى وجه التحديد فى أوائل بداية الشباب.. كانت القراءة بالنسبة لى حياة. كانت معشوقة عمرى. إلى أن أخذت أقرأ سيرة محمد عليه الصلاة والسلام.. ثم أخذت أتأمل القرآن الكريم.. بأسلوبه المعجز.. وأخذت فى قراءة تفسير كتاب الله لعديد من المفسرين.. فإذا بى أشعر وكأننى حصلت على كنز لا يقدر بثمن.. فأخذت أعيد قراءة السيرة، بفهم وعمق.. فإذا بكل الشخصيات التى انبهرت بها فى فترة من حياتى تختفى وتتلاشى أمام وهج الرسالة المحمدية.. كالشمس عندما تشرق لا

يبدو فى السماء سواها . . تختفى كل النجوم ولا يبقى إلا الشمس متربعة فى عليائها تبعث نورها فتبعث الحياة فى كل شىء . .

إننا هنا أمام شخصية محمد عليه الصلاة والسلام . .

شخصية مبهرة غاية الإبهار . .

متكاملة غاية التكامل . .

رائعة غاية الروعة . .

فإذا درست تاريخ حياته لا تجد الا كل ما هو عظيم وجليل . . وعندما تدرس أخلاقياته تجد أخلاقا لا يرتفع إليها إنسان . . أما الشريعة . . أما مبادىء الإسلام الذى بشر بها فهو التشريع الذى يضمن سعادة الدنيا والآخرة لو أخذنا به . . فهو دستور كامل لحياة واعية مستنيرة، وخاصة أن الأنظمة الوضعية قد ثبت فشلها وإخفاقها فى وضع أسس بمقتضاها يعيش الناس فى أمن وأمان . .

هل يمكن لهذا الإنسان العظيم أن يأتى بكل ما أتى به ولو كان مجرد إنسان ادعى النبوة ؟!

إن كل الدلائل تشير إلى صدقه . . سلوكه . . أخلاقياته . . صفاته لا توحى إلا بكل ما هو عظيم وجليل . .

القرآن الكريم الذى أوحى به إليه معجز فى كل سورة من سوره . . بل فى كل آية من آياته . . حتى إنه تحدى العرب وهم أهل بلاغة وفصاحة أن يأتوا بسورة مثله ولكنهم أعلنوا عجزهم وإفلاسهم . .

إن محمداً عاش أربعين عاماً من عمره قبل الرسالة حياة نقية طاهرة. . ولد يتيماً. . فقد مات والده وهو مازال فى بطن أمه. . وفقد أعز الناس إلى قلبه. . فقد أمه وهو مازال فى السادسة من عمره. . لقد ذهب معها لزيارة قبر أبيه. . ومكث فى يثرب شهراً. . وفى طريق العودة ماتت أمه وتركته وحيداً مع جاريته بركة. . وقد شاهد أمه وهى تفارق الحياة. . فكتم الدموع فى عينيه حتى لا يزيد من أحزانها فى لحظات الوداع. . وعندما لفظت آخر أنفاسها انكب عليها يبكيها بأحر الدمع. . ودفنت الأم العزيزة فى «الأبواء». . وعاد وحيداً إلى مكة. . ما أعظم أحزان الطفل الصغير. ولكن جده يكفله ويعوضه عن الحنان المفقود. . ويموت الجد. . يكفله عمه أبو طالب. ويحنو عليه حنوا كبيرا. . ويذهب فى رحلة مع عمه الزبير إلى اليمن . . ويذهب مرة أخرى فى رحلة مع عمه أبى طالب إلى الشام. . كان فى الثانية عشرة من عمره. . وفى هذه الرحلة قابل الراهب بحيرا الذى طلب من عمه أن يعود به إلى مكة لأنه سيأتيه الخبر من السماء. . وأن اليهود سوف يكيدون له. . وأنه يخشى عليه منهم. . وما كان أبو طالب يؤمن بهذا. . ما كان يؤمن بأن هناك إنسانا يمكن أن يأتيه الخبر من السماء. . ولكنه فى نفس الوقت خشى أن يصيب محمداً مكروه فيقول الناس عنه أنه لم ينفذ وصية الراهب، وأمر من يرجع به إلى مكة. وكان فى الرحلة عتيق ابن أبى قحافة «أبو بكر الصديق». . وآثر أن يرجع مع صديقه

محمد.. وتتوالى الأحداث.. ويكبر محمد.. ويصل إلى سن الشباب.. ونجد إنه عزف عن مجتمع مكة بلهوه وعبثه وعاداته وتقاليده..وقد أطلق عليه مجتمع مكة «الأمين» لأمانته ونظافته وأعطوه ثقتهم المطلقة.. ولا ينسى مجتمع مكة له..يوم أعادوا بناء الكعبة.. واختلفت القبائل أيهم يضع الحجر الأسود مكانه واتفقوا على أن يحكموا أول داخل للبيت الحرام.. وكان محمد الذى حل المشكلة بأن وضع الحجر الأسود فى ثوب، وطلب من كل قبيلة أن تمسك بطرف.. وأخذ هو الحجر ووضعه مكانه.. وبهذا الذكاء الخارق حل هذه المشكلة التى كان من الممكن أن تؤدى إلى حرب.. وإلى سفك الدماء..

وكان محمد يكسب رزقه بعرق جبينه، فهو يرعى الأغنام.. واختارته السيدة خديجة بنت خويلد وهى من أشراف مكة ليرعى تجارتها فى الشام.. وربحت التجارة.. وأعجبت بأمانته.. وطلبت منه الزواج وتزوجته.. كانت فى الأربعين من عمرها.. وكان هو فى الخامسة والعشرين من عمره.. ومنها رزق أولاده القاسم، وعبد الله.. وقد ماتا فى طفولتيهما، ورزق منها بزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وقد ولدت فاطمة قبل البعث بخمس سنوات..

وفى سن الأربعين نزل عليه جبريل..عندما كان يتعبد فى غار حراء.. وكان ذلك فى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٦١٠ م .. وكانت أول آيات القرآن الكريم:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق: ١ - ٥].

ويعود محمد عليه الصلاة والسلام إلى منزله خائفاً واجفاً، يقص على زوجته الوفية ما حدث. . وتقف الزوجة العظيمة بجانب النبى العظيم وتقول له: «أبشر يا بن عم واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، والله لن يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الدهر».

وتذهب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل. . وكان على النصرانية ويحفظ الإنجيل، وتحدثه عما حدث لزوجها فيقول لها : «قدوس قدوس، والذى نفس ورقة بيده، إن كنت صدقتنى يا خديجة فإن ما رآه محمد فى غار حراء، إنما كان الناموس الأكبر الذى نزل على موسى وعيسى من قبل، وإن محمداً لهو نبى آخر الدهر، الذى ورد اسمه فى التوراه والإنجيل، وأنه سيقوم بإبلاغ رسالة الله جل وعلا، وسيلقى من قومه وعشيرته الإيذاء والتكذيب، وسيخرجونه ومن معه من ديارهم ثم يقاتل الذين كفروا، ثم يأتيه الله النصر والفتح فاذهبى وقولى له فليثبت».

وكانت بداية الرسالة. .

وظهرت عظمة النبى الكريم وهو يلاقى الكثيرمن عنت قريش وجهلها وصلفها، وهو يشاهد قريشا وهى تعذب المؤمنين بالرسالة . . ولم يزده ذلك إلا تمسكاً وإيماناً بقداسة ما يدعو إليه .

* «والله يا عماه لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

ويذهب الرسول إلى الطائف يلتمس العون، ويرجع منها ولم يسلم سوى خادم اسمه عداس . . ويلاقى هناك العنت والاضطهاد حتى إن سادة الطائف سلطوا عليه سفهاءهم ليرموه بالحجارة حتى دميت قدماه عليه السلام، وما كان منه إلا أن توجه إلى الله بهذا الدعاء الخالد الذى يذوب رقة وعذوبة وإيماناً .

* «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، هوانى على الناس . . يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى، إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى .

ولكن عاقبتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أو يحل على سخطك . . لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

ويهاجر الرسول العظيم إلى يثرب. . وتتكون دولة الإسلام ، ويخوض معارك ضارية مع قريش واليهود وغيرها من القبائل، وتنتصر الدعوة، ويدخل محمد إلى مكة فيحطم الأصنام، ويدخل الناس فى دين الله أفواجاً، ويخطب خطبة الوداع الخالدة، ثم ينتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن أدى الأمانة على أحسن ما يكون الأداء.

إننا لا نسرد السيرة فهى تحتاج إلى مجلدات. . ولكننا نقف فقط مجرد وقفه أمام السيرة التى أنارت الدنيا ورسمت للناس طريق حياتهم. . وعرفتهم أمر آخرتهم ودنياهم. . وسوف تظل نور هداية للناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإذا كان موضوع هذا الكتاب يدور حول دور المرأة فى حياة الأنبياء. . فإن هذا يجعلنا نقف عند الحقوق التى وضعها الإسلام للمرأة، وكيف كرمها. . وأخذ بيدها نحو حياة تشعر فيها بحياتها كإنسانة. . وتشعر فيها بقيمتها فى المجتمع. . فما أعطى قانون وضعى للمرأة ما أعطاها الإسلام، ولا عرفت المجتمعات القديمة أو الحديثة مجتمعاً كرم المرأة كل هذا التكريم الذى كرمه لها الإسلام.

ومن يدرس طبيعة الحياة الاجتماعية فى المجتمعات القديمة كالمجتمع الفرعونى أو الأشورى أو البابلى، يرى أن الرجل وإن كان له زوجة شرعية هى زوجته فقد كان له فى نفس الوقت محظيات وإيماء. وقد عرف الفراعنة تعدد الزوجات. . كما يروى لنا التاريخ أيضاً، كما وجد فى نصوص الأهرام أن الملك يستطيع أن يأخذ النساء من أزواجهن إذا رغب فى ذلك !

كما أنه معروف أن سبايا الحروب يصبحن من حق الجنود.. ولم يوجد فى الإنجيل نص بتحريم الزواج من أكثر من واحدة.. كما أن العرب فى جاهليتهم كانوا يرغمون الإماء على البغاء، وذلك لجمع المال حتى أن الإسلام نهى عن ذلك تماماً وحرمه.

﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ [النور: ٣٣].

كانت هناك فى الجاهلية عادة فى غاية السخف وهى قتل المولود إذا كان بنتا. وكان ذلك متفشيا بصفة خاصة عند الفقراء.. فقد كانوا يخافون الفقر.. وأن يدفع فقر بناتهن إلى احتراف البغاء.. وبذلك يجلبن لأسرهن العار.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

بل إن المجتمع الجاهلى عرف عادة من أسخف العادات التى مرت بالبشرية.. فقد كان هناك نظام الاستبضاع وهو أن يرسل الرجل زوجته لرجل قوى، أو رجل عرف برجاحة العقل، حتى تأتى الذرية قوية فى قوة هذا الرجل وذكائه. ومعروف أن المجتمعات عرفت ما يسمى فى علم الاجتماع بالزواج الجمعى وهو أن يتزوج مجموعة من الرجال مجموعة من النساء وتصبح الزوجات مشاعات بينهم!

وعرفت المجتمعات أيضا نظام الانتساب إلى الأم. . وما أكثر الأنظمة التى مرت بها البشرية، فإذا ما قارناها بما جاء به الإسلام وجدنا الفرق شاسعا للغاية. . فقد كانت المرأة مهانة. . ضعيفة الجانب. . لا كرامة لها ولا لجسدها حرمة. . وجاء الإسلام فوضع لها مكانة مرموقة ما كانت تحلم بها، وما كانت تخطر لها على بال. .

ولعل ما كتبه الدكتور على عبد الواحد وافى فى الكتاب الذى ألفه تحت عنوان (حقوق الإنسان فى الإسلام) ومقارنة ما قدمه الإسلام للمرأة وما قدمته الشرائع الأخرى يبرز عظمة الإسلام فيما قرره من حقوق للمرأة: «فحالة المرأة فى فرنسا مثلا كانت إلى عهد قريب، بل لا تزال إلى الوقت الحاضر أشبه شىء بحالة الرق المدنى، فقد نزع منها القانون صفة الأهلية فى كثير من الشئون المدنية، كما تنص على ذلك المادة السابعة عشر بعد المائتين من القانون المدنى الفرنسى إذ تقرر أن المرأة المتزوجة حتى ولو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها، لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض بدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقة كتابية منه».

وقد عاب البعض على الإسلام أنه أباح تعدد الزوجات، ولكن الذى يتعمق فى الأمر يجد أن الإسلام أباح التعدد فى ظروف خاصة، واشترط أن يعدل الزوج بين أزواجه. . وهذا أفضل بكثير

جدا مما نراه فى الغرب. . فالرجل يكون متزوجا من سيدة واحدة، ولكنه فى نفس الوقت يكون له أكثر من خليلة. . والإسلام وهو يصون للبيت كرامته لا يريد التخفى تحت اسم الفضيلة، بينما يمارس فى الداخل ما يهدم كيان الأسرة.

ولقد وجدنا عقب الحرب العالمية الثانية من نادى فى ألمانيا بتعدد الزوجات نظراً لأن الحرب كانت قد قضت على عدد كبير من شبابها، وبالتالى كثر عدد العوانس ووجدت ألمانيا. . أو المفكرون بها أن الحل يكمن فى تعدد الزوجات. .

وهنا يجب أن نقف عند بعض المستشرقين الذين اتخذوا من زواج النبى عليه الصلاة والسلام بأكثر من واحدة ذريعة للهجوم عليه وعلى الإسلام.

ولو درس هؤلاء ظروف حياة النبى وزواجه ما تكلموا بمثل هذا الكلام الذى يدل على الجهل الفاضح بحقائق الأمور.

فالرسول الكريم لم يتزوج من أجل شهوة، وإلا فلماذا ظل مدة طويلة مكتفيا بالسيدة خديجة رضى الله عنها. . لقد تزوجها وكان عمره ٢٥ عاما وكانت هى فى الأربعين من عمرها، وأنجب منها أولاده، عاش معها أكثر من ربع قرن ولم يتزوج غيرها. . وكانت السيدة خديجة نعم السيدة الفاضلة. . لقد عاشت معه تشد أزره وتسانده بمالها. .

لم يتزوج الرسول وهو فى سن الشباب إلا زوجة واحدة، بعد وفاة السيدة خديجة، وقد سمى العام الذى ماتت فيه وعمه أبوطالب بعام الحزن. . كان الرسول قد تجاوز طور الشباب، وكان زواجه من أمهات المؤمنين زواجا بوحى من الله تعالى وبأمر منه.

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ [الأحزاب:٣٨].

والله سبحانه وتعالى يقول أيضاً:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وبعد أن فتح الرسول مكة، وانتشر دين الله ودخل الناس فيه أفواجاً، هنا استنفذت حكمة تعدد الأزواج للنبى أغراضها ونزل قوله تعالى:

﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

ولقد كان الرسول الكريم وفياً غاية الوفاء للسيدة خديجة. وقد

ذكرها يوماً مما أثار غيرة السيدة عائشة فقالت له: «ما تذكر من عجوز هلكت فى الهالكين فأبدلك الله خيراً منها».

وهنا ظهر الغضب على وجه الرسول الكريم وقال: «والله ما أبدلنى الله خيراً منها: آمنت بى حين كفرالناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس. وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء».

وقد كان معظم زواج النبى من زوجات فقدن العائل، أو كن على غير درجة من الجمال، وكان الرسول يعطف عليهن.

والذى يدرس حياة الرسول الكريم. .تلك الحياة التى قضاها قبل الإسلام، وكان متزوجا بزوجة واحدة. .وظلت معه بعد الإسلام إلى أن انتقلت إلى جوار ربها. .كانت حياته كلها لنشر الدعوة، والجهاد فى سبيل الله، والسهر بالليل عابداً ساجداً، حتى إنه روى أن عائشة قد رأت قدمى الرسول وقد تورمتا من كثرة الوقوف والسجود أن قالت للرسول:

ـ أو لم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

فيجيبها الرسول :

ـ أفلا أكون عبدا شكورا ؟!

والقرآن الكريم يصف حياة النبى بقوله :

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ۝٧ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۝٨﴾ [المزمل: ١ - ٨].

رجل حياته هكذا. . كيف يملأ هذه الحياة وهو العابد المجاهد الصابر. . المؤدى لرسالة الله. . كيف يكون مشغولا بالنساء !

هذا أمر لا يقبله منطق. .

إن مولاى محمد على يقول فى كتابه (محمد رسول الله) :

«يمكن تقسيم حياة النبى الأسرية إلى أربعة أقسام:

كان أعزب حتى الخامسة والعشرين، وعاش مع زوجة واحدة من الخامسة والعشرين حتى الرابعة والخمسين، وتزوج عدة زوجات بين الرابعة والخمسين والستين. . ولم يتزوج من الستين إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

إن فترة العزوبة هى أهم فترة يمكن بها دفع دعوى أن النبى كان عبداً لشهواته فلو كان عبداً لها لما قبض ناصية عواطفة وميوله الجنسية، ولما عاش حتى الخامسة والعشرين حياة نموذجية من الطهر والعفاف جعلته يعرف بين مختلف القبائل بالأمين .

تحكم فى ميوله الجنسية حتى الخامسة والعشرين فى بلاد حارة كبلاد العرب حيث يبلغ الفتيان مرتبة الرجال سريعاً، وتكون عواطفهم فوارة، وميولهم جامحة عنيفة، وما استطاع أعداؤه فيما بعد عندما خاصموه أن يذكروا حادثة واحدة تمس شرفه ».

لم يكن زواج النبى عليه الصلاة والسلام إذن من أجل المتعة الجنسية كما يزعم المستشرقون. . أو على حد تعبير عباس العقاد فى كتاب عبقرية محمد :

« فهو أولا رجل يطلب ما يطلبه الرجل فى المرأة، ونحن قبل كل شىء لا نرى ضيراً على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها، هذا سواء فى الفطرة لا عيب فيه وهذه النفس السرية يمكننا أن نفهمها بجلاء حين نرى أن المرأة لم تشغله عما تشغل المرأة الرجل المفرط فى معرفة النساء من مهام الأمور والقيام بالأعباء الجسام. فمهما قال هؤلاء فلن يستطيعوا أن ينكروا أن محمداً قد حقق ما لم يحققه بشر قبله ولا بعده، ولم يشغله عن هذا شىء لا امرأة ولا غير امرأة، فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها، ويعطى المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص، وهذا الاستبقاء السليم كمال وليس بعيب، ومحمد الذى خير نساءه بين أن يرضين بحياة الكفاف أو يسرحهن سراحاً جميلاً ليس بالضرورة رجلا خاضعاً للذات حسه، فلو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات. وليس هذا فعل رجل يستسلم للذات حسه ».

ويقول العقاد أيضاً فى رده على المستشرقين :

« قال لنا بعض المستشرقين أن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية، قلنا إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط، فلا ينبغى أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء.. فالنبى ﷺ أمكنه أن يسوس تسع زوجات، ولم يؤثر عنهن خصام أو نزاع إلا مرات تعد على أصابع اليد، فمن أتيح له أن يجمع بين عدد من الزوجات فعليه أن يقتدى به فى معاملة زوجاته بالعدل، ومعالجة الشئون المنزلية بالأناة وسعة الصدر، وعلى النساء أن يتخذن من زوجات النبى الكثيرات مثالا صالحاً يحتذينه من العفة والزهد وتدبير المنزل والرضا بما قدر لهن من متاع فى هذه الحياة الدنيا، وبذلك تسعد الأسرة بتمامها وتقوم بواجبها نحو الله ونحو المجتمع الإنسانى. ولو أن المسلمين وغيرهم تأملوا فى حياة النبى مع نسائه واقتدوا به فى معاملة الأزواج والأبناء والأقارب كما أمرهم الله لعاشوا عيشة راضية مرضية..

و..ما أكثر افتراءات المفترين على النبى عليه الصلاة والسلام.. وكلها افتراءات لا تصمد أمام المناقشة الموضوعية.. وليس مهمتنا الدفاع أمام هذه الأوهام التى عششت فى رؤوس موتورة، فالرسول له من أخلاقياته وعظمته ما يعلو فوق تفاهات التافهين .

إن الإسلام كرم المرأة. . وأعطاها من الحقوق ما لم يعطه لها أى قانون وضعى. . والحياة الأسرية لابد أن ترفرف عليها السعادة:

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١].

والتاريخ يقص علينا كيف جاءت جميلة زوجة ثابت بن قيس إلى النبى تطلب الطلاق من زوجها لأنها لا تحبه فقالت للرسول :

ـ يا رسول الله إنى لا أجد عيباً فى ثابت فى خلقه أو دينه، إلا أنى لا أطيقه.

وسألها الرسول إن كانت على استعداد أن ترد المهر له ـ وهو بستان ـ وعندما أجابت بالموافقة استدعى الرسول ثابتاً وأمره بطلاقها.

هل هناك احترام للمشاعر الإنسانية كاحترام النبى عليه الصلاة والسلام لها، تلك المشاعر التى تبرز فى هذه القصة البالغة الدلالة والعمق، على احترام الإسلام لمشاعر الإنسان. . فالإسلام لا يجبر المرأة أن تجلس تحت سقف واحد مع إنسان تكرهه!

فالمرأة مخلوق مكرم فى الإسلام. لا هى مجرد متعة كما ترى بعض المجتمعات، ولا هى كالرقيق كما كان ينظر إليها المجتمع الرومانى، ولا هى كما تنص بعض الشرائع الهندية القديمة وتصفها بهذا الوصف البشع عندما تنص :

«إن الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعى والنار خير من المرأة».

ولم تكتف الشريعة الهندية القديمة بأن تشبه المرأة بهذا التشبيه، بل ترى المرأة مجرد رفيق للرجل، وحياتها لا ينبغى أن تمتد بعد حياة الرجل، فعليها أن تلقى نفسها وسط النيران المشتعلة التى تحرق زوجها لتلاقى نفس مصيره . .

إن الإسلام يعطى المرأة كيانها . .

فإذا كان الزنا جريمة بشعة فى حق المجتمع . . فإن الإسلام يرى أن تعيش المرأة كرامتها. ولا تمس هذه الكرامة تحت إشاعة كاذبة، فمن يرمى المرأة بهتانا بهذا الاتهام ولم يبرهن عليه بأربعة شهود يحق عليه الجلد ثمانين جلدة ولا تقبل شهادته .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [النور: ٤، ٥].

وإذا كان الإسلام قد حفظ للمرأة كرامتها، فلم ينس أن المرأة تدفعها غريزتها إلى الزينة . . وهنا لا يقف الإسلام ضد زينة المرأة، ولكن يكره التبرج، والزينة ليست إلا لرجلها حتى لا تثير غرائز الآخرين .

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ

أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

كما أن الشريعة أباحت للمرأة حق الميراث:

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾ [النساء: ٧].

والإسلام يسوى بين الرجل والمرأة لقوله تعالى :

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [غافر: ٤٠].

وظل الرسول ﷺ طوال حياته مدافعاً عن المرأة.. حتى إنه فى خطبة الوداع وصى بها خيراً.. فقد قال :

«أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حق، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه وعليهن ألا يأتين

بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. . واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان ولا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله».

لقد كان زواج النبى عليه الصلاة والسلام كما قلنا بوحى من الله. .

ولم يكن بسبب متعة أو شهوة. . فقد قضى مع خديجة أكثر من ربع قرن ولم يتزوج غيرها إلا بعد وفاتها. . وأمهات المؤمنين هن سودة بنت زمعة، وعائشة بنت أبى بكر، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وزينب بنت خزيمة، وهند أم سلمة، وزينب بنت جحش، وريحانة بنت عمرو، وجويرية بنت الحارث، ورسله بنت أبى سفيان، وصفية بنت حى بن أخطب ومارية القبطية .

والذى يقرأ حياة النبى مع زوجاته يراها حياة نقية طاهرة، غير أن بعض المستشرقين للأسف حاولوا أن يشوهوا من معالم الصورة، فنرى أحدهم مثلا وهو الراهب «فيدنزو» يحكى قصة أشبه بالرواية الخيالية عن قصة زواج النبى بزينب بنت جحش التى كانت متزوجة من مولاه زيد بن حارثة. . وكان الرسول قد زوجها له ليلغى الفوارق بين الطبقات. . بين السادة والعبيد، كما أن زواجها من زيد كانت له حكمة. وكان الرسول يحب زيداً ولكن زينب لم تنس يوما أنها

شريفة قرشية. وما أكثر ما لاقى زيد من صدها له. . وكان كلما شكا إلى الرسول يقول له :

« امسك عليك زوجك واتق الله ».

وكان الأمر الإلهى بزواج الرسول من زينب يحقق هدفين من أهداف التشريع الإسلامى :

١ ـ أن الرقيق الذى أعتق يمكن أن يتزوج من المرأة الحرة والفرق بين العبد والسيد هو تقوى الله فقط.

٢ ـ أن التشريع الإسلامى يوضح أن الابن المتبنى ليس كالابن الحقيقى ولا يعامل كما يجرى العرف فى الجاهلية. ومن هنا كان الأمر بتزويج النبى إلى زينب. وقد نفذ الرسول هذا الأمر عندما نزل قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ولقد أخذ بعض المستشرقين يسردون القصة ويقولون أن النبى عندما رآها أعجب بها وقرر أن يتزوجها، عندما ذهب إلى مولاه زيد ولم يكن فى الدار وانبهر بجمالها. .

ومما ينفى القصة من أساسها. . أن زينب بنت عمة الرسول ويعرفها. . وهو الذى زوجها لزيد. . فكيف يكون رآها لأول مرة !!

والعقاد يفند هذه الادعاءات ويرد عليها رداً موضوعياً:

«ليس أسهل من شيوع هذه الأكذوبة وترويجها وتنميقها وإخراجها فى قصة غرام تذاع للتشهير برسول الإسلام كما شاعت فى القرون الوسطى. وليس أمهل من إسقاطها وإسقاط المروجين لها بخبر واحد لا شك فيه من أخبارها الكثيرة. . وهو أن زوجة زيد كانت بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى عليه السلام وأن النبى عليه السلام هو الذى زوجها ربيبه وعتيقه زيدا، وما كان جمالها خفياً عليه قبل تزويجها بمولاه لأنها كانت بنت عمته يراها من طفولته وتراه. ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها وهو لا يطمع إلى الزواج من مثلها، يكفى أن يعرف هذا الخبر لتسقط الأكذوبة كلها. وشىء من التفصيل القليل لهذا الخبر يعكس الفضيحة على المبطلين ليعلموا حقيقة القصة المحرفة، ويعلموا أنها آية الخلق الكريم فى نبى المسلمين، وأن زيداً الذى زوجه النبى من بنت عمته لم يكن إلا أسيراً عتيقاً رباه النبى فأخلص له ولدينه وآثر المقام إلى جواره على الرجوع إلى أهله بعد تسريحه، ورفع السيد الكريم عن عبده العتيق ذل الرق بمصاهرته والمساواة بينه وبين كرام أهله، وأطاعت الزوجة النبى كما ينبغى لمثلها مع مثله. ولكنها عاشت مع زوجها كسيرة الخاطر لما كانت تتبينه من نظرات لداتها وقريناتها إليه، ويشعر زيد بما تضمره

من الحزن والأنفة فهمّ بتطليقها ولكنه يستكبر أن يقابل جميل النبى برفض الزوجة التى اختارها له وخصه بها على صحبه. . فارتفعت بنبى الإسلام مروءته إلى حيث ينبغى أن ترتفع مروءة الأنبياء وأحل زيداً من حرجه وعوض زينب عن مهانتها لتعلم ويعلم الناس أنها كفء له، وإن كان قد اختارها لفتاه الذى كان يتبناه، ولولا ذلك لعاشت الزوجة المطلقة معضلة بين لداتها وأترابها وهى لا تطمع فى الزواج من كفء لها بعد تطليقها، وليس مما يجبر خاطر الكسير أن يساق إليها الزوج الذى يكافئها وتكافئه مأمولا بزواجها.

تلك قصة أرسلوها فى غياهب القرون الوسطى، لينظر الناس فى ظلماتها إلى وصمة إنسانية يعاف من أجلها الإنسان، ويعاف الدين الذى يدعو من أجله. ويزيد عليها خبر صغير لا شك فيه، بغاية البر والإحسان إلى الأسير الضعيف الغريب عن أهله ووطنه، وغاية البر ضعف الأنوثة، والعرف على شعورها برغم إرادتها. وكانت فضيلة الصدق مع فضيلة العفة أكبر الأهداف التى تعمدها أصحاب هذه المكيدة بالأفكار فيما زيفوه من القصص المحرفة عن صفات النبى».

والقصة الأخرى البارزة فى سيرة النبى بالنساء، هى تلك الحادثة ـ حادثة الإفك ـ التى تعرضت لها السيدة عائشة رضى الله عنها. . فقد تعرضت لإشاعة سخيفة. . وقد روج لهذه الإشاعة رأس المنافقين «عبد الله بن أبى مسلول» حتى وصلت إلى أذن الرسول وإلى أذن

والدها «أبو بكر الصديق» . . وكانت عائشة من أحب النساء إلى قلب الرسول . . والإشاعة ذاعت عندما صحبت السيدة عائشة النبى فى غزوة «بنى المصطلق» . . وبعد انتصار المسلمين فيها ذهبت عائشة لقضاء حاجتها بعيداً فى الصحراء، وعندما عادت إلى مكانها وجدت أن العقد الذى كانت تلبسه ليس فى صدرها فعادت من جديد لتجمع حبات العقد، وعندما عادت كان الجيش قد سار إلى المدينة، وظلت هى فى مكانها وهى تعلم أنهم سوف لا يجدونها فى هودجها وسوف يعود من يأخذها . . وكان متخلفاً من جيش المسلمين «صفوان بن المعطل»، أمل أن يجد شيئاً قد تركه الجنود : فلما رأى عائشة عرفها، وأركبها بعيره، وأخذ بزمام البعير حتى وصلت إلى المدينة . والقصة عادية إلا أن المنافق «عبد الله بن أبى مسلول» أخذ يشيع أنها كانت على علاقة مع الرجل إلى أن وصلت هذه الإشاعة إلى أذن النبى وكذلك أبو بكر . . وكان الرسول يعلم تماما براءة زوجته . . حتى إنه خطب فى الناس فقال: «يا أيها الناس، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل ما علمت منه إلا خيراً، وما أدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى» .

وكادت تحدث فتنة . .

والرسول ينتظر وطال الانتظار . .

وقال له أسامة بن زيد أن ما قيل عنها مجرد افتراءات .

بينما قال له على بن أبى طالب :

ـ يا رسول الله، النساء كثيرات، وإنك لقادر أن تستخلف، وسل الجارية فإنها ستصدقك. .

وسأل الرسول جاريتها بريرة فنفت عنها أى سوء. .

وذهب الرسول إليها فى بيت أبيها أبى بكر .

وقال لها: «يا عائشة إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس فاتقى الله، وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله، فإن الله يقبل التوبة من عباده. وترد عائشة :

والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، فلئن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقونى، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إنى منه بريئة لتصدقن. فو الله لا أجد لى ولكم إلا قول أبى يوسف عليه السلام فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون».

وينزل الوحى من فوق سبع سماوات ببراءة عائشة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [النور: ١١، ١٢].

إلى أن قال:

﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا

بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٦ - ١٩].

وعادت عائشة إلى بيت النبى وظلت معززة مكرمة إلى أن لحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى فى بيتها، حيث دفن وكان عمره عليه الصلاة والسلام ٦٣ سنة وكان عمرها ٢٣ سنة.

والذى يتبع حياة أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر يعرف أنها لم تنس لعلى بن أبى طالب قوله للنبى: النساء كثير.. فلقد مرت الأيام.. وعندما بويع على بالخلافة جاهرت بعدائها له، وألبت عليه المسلمين، وخرجت مع طلحة والزبير إلى البصرة لتأليب الناس على الإمام على، والمطالبة بدم عثمان.. وعلم الإمام على بذلك فأرسل إليها يقول:

«أما بعد فإنك خرجت من بيتك عاصية لله ورسوله، أتطلبين أمراً كان عنك موضوعاً، ثم تزعمين أنك تريدين الإصلاح بين الناس، فخبرينى ما للنساء وقيادة العساكر، وزعمت إنك طالبة لدم عثمان، وعثمان من بنى أمية، وأنت امرأة من بنى تميم بن مرة، ولعمرى أن الذى عرضك للبلاء وحملك على المعصية لأعظم إليك ذنباً من قتل عثمان، وما غضبت حتى أغضبت، وما هجت حتى هيجت، فاتقى الله يا عائشة أن تتعظى من هذا الخطاب».

ولكن عائشة لم تذعن، ولم تبعد نفسها عن هذه الفتنة وردت على الإمام بقولها :

« يا ابن أبى طالب جل الأمر عن العتاب، ولن ندخل فى طاعتك أبدا فاقض ما أنت قاض والسلام».

وكانت معركة الجمل، وقتل فيها طلحة والزبير، ومات خمسة عشر ألف رجل. . واستبسل رجال عائشة فى الدفاع عنها، وأمر الإمام على بقتل الجمل، وانتهت المعركة بانتصار على. . وتقدم على ابن أبى طالب إلى هودجها وقال لها :

ـ « يا حميراء. . رسول الله أمرك بذلك ؟!

ألم يأمرك أن تقرى فى بيتك! والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا عقائلهم وأبرزوك ».

ومن المعروف أن أخاها محمد بن أبى بكر كان فى صفوف جيوش على ضد أخته !

وطلب الإمام من أخيها أن يعود بها إلى مكة مكرمة معززة. وشعرت السيدة عائشة بالندم على ما فعلته، حتى روى عنها أنها ذهبت إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب تلومه لأنه لم يمنعها من أن تفعل هذه الفعلة وتقف ضد على. .كانت تشعر أنها تورطت بلا مبرر فى هذه الفتنة.

لقد ظلت مؤرقة الضمير، حتى إذا حضرتها الوفاة أصابها الجزع، وسألوها كيف تجزع من الموت وهى زوجة الرسول العظيم وبنت الصديق وكان ردها :

« إن يوم الجمل معترض فى حلقى. . ليتنى نسياً منسياً».

واعتزلت السياسة بعدها. . إلى أن انتقلت إلى رحاب الله بعد أن جاوزت السبعين من عمرها وكان ذلك (فى ١٧ رمضان سنة ٥٨هـ) ودفنت فى البقيع.

وحياة نساء النبى معه. . كانت حياة لا تخلو مما يحدث بين الضرائر. . وقد حدث أن اتفقن فيما بينهن أن يطالبن الرسول بحياة أكثر رغدا، وخاصة بعد أن انتصر على اليهود وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة؛ فطالبن بزيادة الإنفاق عليهن، وغضب الرسول، فالرسول يرفض أن تعيش زوجاته حياة الملوك والأباطرة .

لقد ظل محمد عليه الصلاة والسلام طوال حياته متواضعاً. . بالمؤمنين رؤوف رحيم. لايريد أن يتميز على أحد. . وهو لا يتطلع إلى الغنى. . بل كان يدعو الله بقوله: «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً !!». . وهو الذى كان يقول : « إننى ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

إنسان كهذا هل يمكن أن يعيش حياة مرفهة. . وهو الذى وهب حياته لله. . وعاش بالله وفى الله. . وقرر الرسول أن يعتزل نساءه، وحرمهن على نفسه، ونزل قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

وأبلغ الرسول زوجاته بذلك.. وطلب من عائشة رضى الله عنها أن تستشير والدها فى ذلك فرفضت واختارت الله ورسوله، وفعلت ذلك باقى الزوجات.

وباختصار شديد.. فقد كرم الرسول العظيم المرأة.. واحترم الإسلام مشاعرها.. وأعطاها من الحقوق ما صانها عن كل ما يخدش كرامتها وإنسانيتها.. وأخذ بيدها لتؤدى دوراً مستنيراً فى المجتمع والحياة. .وكفل لها من الحقوق ما يجعلها تعيش حياة آمنة مستقرة.. وكفل لها أيضاً ما يجعل منها إنسانة كريمة.. تعيش فى مجتمع كريم.. وأنها لو سلكت السلوك الذى أوصى به الإسلام.. تنال عز الدارين.. سعادة الدنيا، وحسن ثواب الآخرة.

* * *

هذه رحلة سريعة عبر رسالات السماء. .رأينا فيها دور المرأة فى حياة الأنبياء. . ورأينا كيف أن منهن من وقفن بجانب الأنبياء. . وساعدن على انتشار دعواتهم. . ومنهن من وقفن ضد الأنبياء. . وكان عاقبة ذلك خسران الدنيا والآخرة.

فالمرأة هى المرأة. . فى أى مجتمع. . إما أن ترتفع إلى القمة وإما أن تهبط إلى القاع. . إما أن تكون عامل سعادة أو عامل شقاء. . إن المرأة هى المرأة فى مختلف العصور. . وفى كل أزمنة التاريخ !!

* * *

المراجع

- القرآن الكريم .
- تفسير القرآن العظيم : لابن كثير .
- تفسير الطبرى .
- تاريخ الطبرى .
- التفسير الوسيط : للدكتور/ محمد سيد طنطاوى .
- كتب العهد القديم والعهد الجديد .
- قصص الأنبياء : لابن كثير .
- السيرة النبوية : لابن هشام .
- قصص الأنبياء : لعبدالوهاب النجار .
- الملل والنحل : للشهر ستانى .
- عبقرية محمد : لعباس العقاد .
- عقائد المفكرين فى القرن العشرين (عباس العقاد) .
- الله : عباس العقاد .
- قصة العقائد : سليمان مظهر .
- خاتم النبيين : الشيخ محمد أبوزهرة .

- حقوق الإنسان فى الإسلام: د. عبدالوهاب وافى.
- المسيح عيسى بن مريم : عبدالحميد جودة السحار.
- حياة محمد: د. محمد حسين هيكل.
- المرأة فى مجتمع الأنبياء: المهندس/ أحمد الجبالى.
- مشاهد من حياة الرسول: مأمون غريب.
- الرسالات الكبرى: سنية قراعة.

فهرست

رقم الإيداع
٩٩/٧٤٦٢
I.S.B.N.
977 - 294 - 124 - 4

مطابع أمون
٤ الفيروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦